مواقف الأدبـاء العرب من قضيّة السّفور والحجاب: تردّد وشكوك في ظلّ التحوّلات الاجتماعيّة

إعداد

خالد سِـنداوي
أكاديميّة القاسمي، باقة الغربيّة، فلسطين

الجامعة الإسلامية بمنيسوتا
Islamic University of Minnesota
المركز الرئيسي IUM
المركز الرئيسي

الملخّص

يستعرض هذا البحث قضيّة السّفور في الأدب العربي الحديث، حيث تناول آراء مجموعة مختلفة من الأدباء حول هذه الظاهرة التي كانت محطّ جدل اجتماعي وثقافي. انقسم الأدباء إلى ثلاث فئات رئيسيّة: المؤيّدون للسّفور، المعارضون له، والمتحفّظون الذين لم يتّخذوا موقفًا ثابتًا. في فئة المؤيّدين للسّفور، كان الشاعر جميل صدقي الزهاوي أبرز الداعين إلى تمزيق الحجاب باعتباره قيدًا على حريّة المرأة، مشيرًا إلى أنّ السّفور يعزّز من تقدّم المرأة في المجتمع. وشارك في هذا الاتّجاه العديد من الأدباء مثل: معروف الرُّصافي ومَلَك حفني ناصف الذين اعتبروا الحجاب عادة اجتماعيّة لا تمتّ بِصلة إلى الدين، وأكّدوا أنّ حريّة المرأة لا تتعارض مع عفّتها. من ناحية أخرى، كانت هناك فئة من الأدباء المعارضين للسّفور، مثل: مصطفى صادق الرافعي وأحمد محرّم، الذين رأوا في السّفور تهديدًا للأخلاق والقيم الاجتماعيّة. كان هؤلاء يعتبرون الحجاب عنصرًا أساسيًّا لحماية المرأة من الانحلال الأخلاقي، واعتبروا أنّ التمسّك بالتقاليد يعكس القوّة الثقافيّة للمجتمع. أخيرًا، كان هناك أدباء متردّدون مثل: أحمد شوقي وحافظ إبراهيم الذين عبّروا عن حيرَة تجاه الموضوع، معتقدين أنّ هناك حاجة لتغيير وضع المرأة، ولكن دون المساس بالقِيم التقليديّة. وقد أوضح هذا المقال الصراع بين التقليد والحداثة في الأدب العربي الحديث، وقدّم رؤى متنوّعة حول مكانة المرأة في المجتمع وتأثيرات التغيير الاجتماعي. وبيّن أنّ الأدب قادر على خوض غمار معركة فكريّة، وحراك اجتماعي، وأنّه يمكن استخدامه كأداة فكريّة للإقناع والحشد والتّأييد، وأنّ بمقدوره خلخلة القِيَم وتبديل الموازين أو استقرارها.

الكلمات المفتاحية : السُّفور، الحجاب، المرأة، الأدب العربي المعاصر، التحوّلات الاجتماعيّة، الحداثة الغربيّة. الشعر العربي الحديث.

Abstract

This research examines the issue of unveiling (al-sufūr) in modern Arabic literature, exploring the views of diverse writers on this phenomenon, which has been a subject of social and cultural controversy. The writers are divided into three main categories: proponents of unveiling, opponents of it, and those who remained hesitant or ambivalent. Among the proponents of unveiling, the poet Jamil Sidqi al-Zahawi emerged as a prominent advocate for discarding the veil, which he viewed as a constraint on women's freedom. He argued that unveiling enhances women's progress in society. Other writers, such as Ma'ruf al-Rusafi and Malak Hifni Nasif, aligned with this perspective, asserting that the veil is a social custom with no religious basis and emphasizing that women's freedom does not conflict with their virtue. On the opposing side, writers like Mustafa Sadiq al-Rafi'i and Ahmad Muharram perceived unveiling as a threat to social morals and values. They regarded the veil as essential for protecting women from moral decay and saw adherence to tradition as a reflection of society's cultural strength. Finally, hesitant writers such as Ahmad Shawqi and Hafez Ibrahim expressed uncertainty about the issue. While acknowledging the need for improving women's status, they cautioned against undermining traditional values. This article elucidates the conflict between tradition and modernity in modern Arabic literature, offering diverse insights into women's societal roles and the impacts of social change. It demonstrates that literature can engage in intellectual battles and social movements, serving as a tool for persuasion, mobilization, and advocacy. Furthermore, it reveals literature's capacity to

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

destabilize or reinforce values and recalibrate societal balances.

Keywords: Unveiling (al-sufūr), Veil (hijab), Women, Contemporary Arabic Literature, Social Transformations, Western Modernity, Modern Arabic Poetry.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

مدخل

تعدّ قضيّة سفور المرأة من القضايا المجتمعيّة الّتي ألهبت صراعا حادا في أقطار إسلاميّة عديدة، كمصر، والشّام، والعراق، والمغرب العربي، وغيرها من بلدان المسلمين، وهي قضيّة قديمة حديثة، تبدو حينا، وتخبو حينا، تجاوزتها بعض الأقطار، واستقبلتها بلدان أخرى، وهي قضيّة ضمن قضايا عديدة تتمحور حول المرأة المسلمة، وهويّتها، وشخصيّتها، وحدودها الشّرعيّة في اللّباس، والعمل وقيادة السّيارة، والرّياضة، وقضايا كثيرة زعم بعضهم أنّ النّقاش فيها، وإثارتها تأتي ضمن إنصاف المرأة ممّن ظلمها، والمطالبة بحقوقها المسلوبة، وواجباتها المنقوصة، وأحسب أن تناول قضايا المرأة مطلوب، وأنّ بعض حقوقها منقوصة، ولا أذود عن بعض الممارسات الخاطئة الّتي امتدّت إلى تهشيمها، وتقديس بعض العادات الّتي رأت دونيّتها، وأثقلت كاهلها بما ليس من طبيعتها، وظلمتها، واحتكرت زواجها، وغير ذلك من صفوف الظّلم الّتي يأباها الشّرع، وترفضها الفطرة السّويّة.

غير أن تضخّم النّقاشات حول قضايا المرأة، وإقحامها في كلّ صغير وكبير دأبا لبعض المفكّرين والمثقّفين، الّذين كانوا أكثر نسويّة من النّساء في طرح قضاياهم، وأصبحت المرأة في لبسها، وعاداتها، ورغباتها، هي شغلهم الشّاغل، فدارت رحى المعارك -منذ زمن غير قريب-بين المرأة الجديدة العصريّة، والمرأة التّقليديّة المتخلّفة. يقول الدّكتور محمّد حسين: «وكانت المرأة هي أبرز هذه الموضوعات، وأكثرها إثارة للجدل، وذلك لسعة الخلاف بين المسلمين، وبين الغربيّين فيما يتّصل بها من عادات، ومن تقاليد، ممّا لا يرجى معه اتّفاق إلاّ بفناء أحد المذهبَين في الآخر...»[1].

ويأتي ناقد مثل الدّكتور سعيد بِنكراد Bengrad فيقرأ سيميائيّات الأنساق الثّقافيّة، فيقف مع الحِجاب، ويحاول أن يتتبّع هذه الظّاهرة

1- حسين، محمد. الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر.ط.3.، الإسكندريّة: مطبعة الآداب، 1968، 2: 248.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وفق منهج نقدي، ويزعم إعراضه عن الولوج إلى مناطق الإفتاء، والرّأي الدّيني، ويتلجلج في خاطره سؤال يعنونه لمبحث من مباحث كتابه «وهج المعاني» ويتساءل عن الحِجاب أَهو حاجة دينيّة، أم إكراه ذكوري؟! وتردُ في مقالته عبارات قلقة حول الحجاب من مثل قوله: «... فنِسبة كبيرة من مسلمات ومسلمي هذا الوطن، لا يرون في الحِجاب ضرورة دينيّة، بل ينظرون إليه -في كثير من الأحيان-بوصفه سلوكا إيديولوجيّا أملَته حاجات اجتماعيّة لا علاقة لها بالدّين». وقوله: «فرغم ترسانة الفتاوى المليئة بالتّرهيب والترغيب، ومحاسن التّقوى، وهول الآخرة، لم يستطع الفقهاء، من كلّ الاتّجاهات إقناع المرأة بالتخلّي عن جزء أساسي من هويّتها في الفضاء العمومي. لقد تحوّل الحِجاب -حسب المقامات- من رمز ديني صريح إلى يافطة للخداع، تكشف عن جسد موزّع على كلّ الأهواء»[2].

إنّ التّركيز على سفور المرأة ما هو إلاّ خطوة في طريق طويل يبدأ بكشف الوجه، وينتهي بخلع ملابس المرأة إلاّ ما يستر عورتها المغلّظة، وحينئذ ينتزع الحياء، ويسري الفساد، وتتحطّم الأخلاق، ويشتعل سعار الجنس، ويلهث الشّباب من الجنسَين خلف شهواتهم الّتي تكبر عبر الزمن، كما تكبر كُرة الثّلج، وتصبح القلوب خلوّا من الهمَم العالية، والمشروعات النّاهضة، والابتكار والعمل، والجدّ والرّقي.

إنّ الغرب الّذي يؤوب إليه بعض مفكرينا شَعر بمهانة المرأة المعاصرة في مجتمعه، وأدرك أنّ دعوات التحرّر إنّما هي دعوات لاستغلال المرأة، وإقصائها من عرشها، ومملكتها الخاصّة، وإنهاكها في مجالات لا تتلاءم مع رقّتها، ونعومتها، وحليتها. يقول بيير داكو: «لم يسبق للمرأة أن كانت مسحوقة، ومنهارة، وخامدة مثلما هي عليه الآن، ويمثل عصرنا أكثر العمليّات دناءة في تاريخ المرأة، فالمظاهر خداعة، ذلك أنّ الفخّ مموّه على نحو يثير الإعجاب...إنّ الفخّ قام بعمله على نحو ممتاز...فالسّمكة كانت جائعة، وكان يكفي إلقاء

2- بِنْكراد، سعيد. وهج المعاني: سيميائيّات الأنساق الثّقافيّة. الدار البيضاء: المركز الثّقافي العربي، 2013، 18

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الصّنارة في الماء حتّى تنخدع بها»[3].

وفي مصر -على سبيل المثال- شغلت قضيّة ما يسمّى بـ«تحرير المرأة» الوسط الشّرعي، والفكري، والأدبي، والاجتماعي مدّة من الزّمن، فظهرت بوادر تلك القضيّة عند رفاعة طهطاوي (ت.١٨٧٣م) في كتابه الشّهير «تخليص الإبريز في تلخيص باريز»، ثمّ كتب محمّد عبده (ت.١٩٠٥م) مقالات لمس فيها هذه القضية لمسا رفيقا، إلى أن جاء قاسم أمين (ت.١٩٠٨م)، فأثار ضجّة عارمة في كتابَيْه: «تحرير المرأة» الذّي صدر عام ١٨٩٩م، و«المرأة الجديدة» الّذي صدر عام ١٩٠٠م[4].

ولسنا هنا بصدد الحديث عن تلك القضيّة، فهي قضيّة طويلة الذّيول، وتناولها العلماء والمفكّرون بالتّفنيد، والتّوضيح، حتّى قيل: إنّ عدد الكتب الّتي ردّت على أفكار قاسم أمين في كتابَيه السّالفَين قد زادت على مائة كتاب[5]، ولسنا هنا بصدد مناقشة قضيّة كبيرة كهذه القضيّة، فقد نوقشت نقاشا شرعيّا، وعقليّا، وفكريّا، ونحن هنا نجسّ النّبض حول تأثير الأدب بأجناسه المختلفة في توجيه المجتمع، وخلخلة المفاهيم، ومدى قدرته على الإقناع، والانتصار لفريق على آخر.

إنّنا حين نحاول دراسة قضيّة السّفور في الأدب العربي الحديث نهدف إلى رصد قيمة التّأثير الأدبي في المجتمعات العربيّة، وكيف استخدمه أصحابه أداة إصلاح، أو مِعول هدم، ومدى سريان التّأثير الفكري للأدب في المعارك المضطرمة بين أقطاب التّغريب، وأنصار الأصالة والمحافظة،

دواعي البحث

تمّ اختيار موضوع هذا البحث نظرًا لأهميّة قضيّة السّفور والحجاب باعتبارها قضيّة مجتمعيّة ذات أبعاد ثقافيّة ودينيّة تؤثّر بشكل عميق في تحوّلات المجتمع العربي في العصر الحديث. كما يسعى البحث

3- داكو، بيير. المرأة: بحث في سيكولوجيّة الأعماق. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1983، 17.

4- حسين، محمد. أزمة العصر. جدّة-الرياض: دار عُكاظ للطباعة والنشر، 1978، 202- 203.

5- الدّاود، عبد الله. هل يكذب التّاريخ. ط.8.، الرياض: د.ن.، 2012، مقدّمة الكتاب 9- 10.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

لبيان مواقف الأدباء والشعراء الذين عاشوا في فترة من التحوّلات الكبرى في تاريخ العالم العربي، مثل التأثيرات الاستعماريّة، والحركات الوطنية، والتغيرات الاجتماعية والسياسية، وكيف انعكست هذه التحوّلات في أعمالهم الأدبية. كما يسلّط البحث الضوء على التردّد والارتباك الذي أصاب بعض الأدباء تجاه قضايا المرأة، حيث تباينت مواقفهم بين التشدّد في الدفاع عن الحجاب والدعوة إلى بعض مظاهر التحرّر، ممّا يسهم في تقديم فهم أعمق للمواقف الأدبيّة في تلك الفترة. بالإضافة إلى ذلك، سيوضح البحث تأثير الفكر الأوروبي والحداثة الغربيّة على الفكر العربي، وكيف تعامل الأدباء مع هذه الموجات الثقافيّة الجديدة ضمن القيم التقليديّة. إنّ دراسة هذه المواقف تساعد في استكشاف العلاقة بين الأدب والسياسة والمجتمع، وفهم كيفيّة تأثير قضايا مثل الحجاب والسفور في تشكيل هويّة المرأة العربيّة في تلك الحقبة، كما توضح التنوّع الفكري في الأدب العربي وأثره على المجتمع.

منهج البحث

استخدم البحث منهج التحليل الأدبي النقدي، وهو المنهج الذي يهتمّ بدراسة النصوص الأدبية وتحليلها بشكل نقدي لفهم كيفية تناول الأدباء لموضوعات مثل السّفور. هذا المنهج يتضمّن:

1. تحليل المحتوى الأدبي: من خلال فحص النصوص الأدبيّة التي تناولت موضوع السّفور من مختلف جوانبها (شعرية، نثرية، فكرية) بهدف استخراج آراء الأدباء وتوجّهاتهم.
2. التحليل السياقي: السياق التاريخي والاجتماعي الذي ظهرت فيه هذه النصوص، وتأثير ذلك على المواقف المختلفة تجاه السّفور. هذا يشمل تأثير الحركات الإصلاحيّة والظروف الاجتماعيّة في العالم العربي في تلك الحقبة.
3. المنهج المقارن: مقارنة آراء الأدباء من مختلف التوجّهات حول السّفور، مع إبراز أوجه الاختلاف والتشابه بين رؤاهم. هذه الطريقة تساعد في تقديم فهم أعمق للتنوع في الفكر الأدبي العربي في

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

تلك الفترة.

4 المنهج التاريخي: تتبّع تطور فكرة السّفور في الأدب العربي الحديث، وربطها بالأحداث السياسيّة والاجتماعيّة التي شكّلت مفاهيم الأدباء والمجتمع حول الحجاب والحريّة.

باستخدام هذه المناهج، يمكن تقديم تحليل شامل وموضوعي للأدب العربي الحديث في تناوله لموضوع السّفور، ويسهم ذلك في فهم كيفية تأثير الأدب في تشكيل الرأي العام حول قضايا اجتماعيّة مهمّة مثل مكانة المرأة.

سؤال البحث:

سيحاول البحث الحالي الإجابة عن السؤال التالي:

-كيف تناول الأدباء العرب في الأدب الحديث قضية السّفور، وما هي الأبعاد الاجتماعيّة والثقافية والسياسيّة التي أثّرت في هذه التناول؟

سيحاول البحث من خلال هذا السؤال دراسة كيفيّة تعبير الأدباء عن هذا الموضوع، وتحليل الأساليب الأدبّية التي استخدموها لعرض المواقف المختلفة تجاه السّفور، مع التركيز على تأثير السياقات الاجتماعيّة والسياسيّة والثقافيّة في فترة ما بعد الحرب العالمية الثانّية.

السّفور والحجاب في التّراث الأدبي القديم

السّفور لغة:

لفظة السّفور تمرّ في التّراث الأدبي القديم بمعناها المستخدَم اليوم، يقول الخليل ابن أحمد (ت.٧٩١م) في كتاب العَيْن: «والسّفور: سفر المرأة نقابها عن وجهها، فهي سافر، وهنَّ سوافر»[6]، ويستشهد بقول توبة ابن الحُمَيِّر الخفاجي [الطويل]:

وكنتُ إذا ما جئتُ ليلى تبرقعَتْ فَقدْ رابَني منها الغداةَ سُفورُها

6- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين. تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامَرّائي، القاهرة: دار ومكتبة الهلال، د.ت.، باب السّين 2: 251.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

والسّفور ملازم للحِجاب، فهما ضدّان لا يجتمعان، وفي تراثنا القديم دلائل كثيرة على امتداح المرأة بحشمتها، وحجابها، ولمزها إذا كشفت عن وجهها، وأسفرت عن محاسنها، وقد رصد الدكتور يحيى الجبوري في كتابه «الملابس الجاهليّة في الشّعر الجاهلي» عددا من الألبسة الّتي تحتجب بها المرأة في الجاهليّة، كالخِمار، والبُرْقُع، والخِفاء، وهو رداء تلبسه العروس على ثوبها فتخفيه به، وكلّ ما ستر شيئا فهو له خفاء»[7].

ولَقَب «ذي الخِمار» أُطلِق على عدد من الجاهليّين منهم: عوف بن الرّبيع، لُقِّب بذي الخِمار، لأنّه قاتل في خمار زوجته، وأبلى بلاء شديدا في المعركة، وأشار إليه خصومه بهذا الاسم[8].

وهند بنت صعصعة (ت.؟) سمّيت بذات الخِمار أيضا لأنّها وضعت خِمارها، وافتخرت بقولها: «من جاءت من نساء العرب بأربعة كأربعة يحلّ لي أن أضع خماري معهم، فلها صرمتي: أبي صَعْصَعة، وأخي غالب، وخالي الأقرّع، وزوجي الزَّبرقان بن بدر»[9].

والنّابغة الذُّبياني (ت. ٦٠٥م) يؤكّد حياء المرأة، وحرصها على الاحتجاب من الغرباء، وذلك حين يفاجئ جارية بالدّخول، فتشدّ خمارها، وتتّقي نظراته بمعصمها، أو كفّها، فيلتقط تلك الصّورة ليوظفها توظيفا فنيا بارعا، كعادة الشّعراء النّابغين، فيقول أبياتا ذاعت في ديوان الشّعر العربي. يقول [الكامل][10]:

سقطَ النَّصيفُ ولم تُرِد إسقاطَه ... فتناولته واتّقتنا باليدِ
بمُخَضَّبٍ رخصٍ كأنَّ بَنانَه ... عَنَمٌ يكادُ من اللطافةِ يُعقَدِ

7- الجبوري، يحيى. الملابس في الشّعر الجاهلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، 1989، 118.

8- الفَيْروزبادي، مجد الدين محمّد بن يعقوب. القاموس المحيط. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت: مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، 1426هـ/2005م،2: 23-24، مادة «خمر».

9- التميمي، أبو عُبيدَة معمّر بن المثنّى. (معدّ). نقائض جرير والفرزدق. تحقيق: بيفان، ليدن: مطبعة بريل، 1905-1912، 264.

10- النابغة الذبياني، ديوان النابغة الذبياني. ط.2.، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، القاهرة: دار المعارف، 1985، 93.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

(والقناع) يستخدمه الشّاعر الجاهلي كِناية عن تخفّي المرأة، واستتارها عن الرّجل الغريب، ولذا يقول عُروة ابن الوَرْد العبسيّ [11] (ت. ٦٠٧م) [الطويل]:

فراشي فِراشُ الضّيفِ والبيتُ بَيْتُهُ ولمْ يَلْهُنِي عَنْهُ غَزَالٌ مُقَنَّعُ

وحين تحافظ المرأة على خمارها، وتصون عفتها، وتحمي حياءها، فإنهّا تكون غاية لإعجاب الشّعراء، ومرمى ممادحهم، كقول الشّنفَرى [12](ثابت بن أوس ت. ٥٢٥م) [الطويل]:

لقد أَعْجَبَتْنِي لا سُقُوطًا قِناعُهَا إِذَا مَا مَشَتْ وَلا بِذَاتِ تَلُفَّتِ

ويؤكّد هذا المعنى دُريد بن الصُّمَّة (ت. القرن السادس م) في قوله [الطويل] [13]:

مِنَ الخَفَرَاتِ لا سُقُوطًا خِمَارُهَا إِذَا بَرَزَتْ وَلا خُرُوجَ المُقَيَّدِ

وإذا ما تهاونت المرأة في حجابها، وأظهرت محاسنها استيقظت الفتن في نفس الرّجل، وجذبه الهوى، وغرق في لجج من الخيالات والأوهام، وهنا ترد صيغة (مَيلاء الخِمار) للتّعبير عن هذا الصّنف المُغري، كما في قول جِران العَوْد [14] (عامر بن الحارث النُّمَيْري ت.؟) [الطويل]:

11- عروة بن الورد. ديوان عُروة بن الورد شرح ابن السَّكِيت. تحقيق: عبد المعين الملوحي، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، 1966، 68.

12- الضّبّي، المُفَضَّل بن محمّد. المفَضّليّات. ط.6.، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلا محمد هارون، القاهرة: دار المعارف، 1983، 109.

13- دريد بن الصِّمَّة. ديوان دُريد بن الصِّمّة. تحقيق: عمر عبد الرسول، القاهرة: دار المعارف، 1985، 58.

14- النُمَيري، جِران العَوْد. ديوان جِران العَوْد النميري رواية أبي سعيد السكريّ. القاهرة: مطبعة دار الكتب المصريّة بالقاهرة، 1931، 15.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وَفِي الحَيِّ مِلْءُ الخِمَارِ كَأَنَّهَا مَآهَةُ بِهَجْلٍ مِنْ أَدِيمٍ تَغْطُفِ
شُمُوسُ الصَّبَا وَالْأُنْسِ مَخْطُوفَةُ الحَشَا قَتُولُ الهَوَى لَوْ كَانَتِ الدَّارُ تَسْعَفِ

وفي المسجد الحرام حين تطوف المرأة في أقدس البقاع، ويحوطها الحجّاج والمعتمرون، والذّاكرون الله كثيرا، والذّاكرات تجد صورة لعفّة المرأة، وتمسّكها بحجابها حتّى في هذا الموضع الّذي لا يجد فيه أغلب المسلمين مجالا للهو، والعبث، فرهبة المكان، وقدسيّة العبادة، ومضاعفة الإثم تحجّب عبث العابثين إلاّ من رجل أعمى الله بصيرته، وطمس قلبه، تأمل قول الحارث بن خالد المخزومي (ت.٦٩٩م) يصف نساء يطفْن بالبيت العتيق وقد احتجبن، ومالت حجبهن من شدّة التّعب، يقول[15] [الكامل]:

يقعدن في التطواف آونة ويطفن أحياناً على فتر
فَفَرَغْنَ مِنْ سَبْعٍ وَقَدْ جَهِدَتْ أَحْشَاؤُهُنَّ مَوَائِلَ الخَمْرِ

ومِسْكين الدارِمي (ربيعة بن عامر التَّميميّ ت. ٧٠٨م) يسهم في بيع أخمِرة سوداء، جاء بها تاجر كوفي إلى المدينة، فباعها إلاّ السّوداء، فشكى إلى مِسكين -وكان مسكين تنَسّك، وترك الشّعر والغناء- فقال: «لا تهتمّ فإنّي سأنفقها لك حتّى تبيع جميعها -إن شاء الله-ثمّ قال [الكامل]:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ فِي الْخِمَارِ الْأَسْوَدِ مَاذَا صَنَعْتِ بِزَاهِدٍ مُتَعَبِّدِ
قَدْ كَانَ شَمَّرَ لِلصَّلَاةِ ثِيَابَهُ حَتَّى عَرَضْتِ لَهُ بِبَابِ الْمَسْجِدِ
رُدِّي عَلَيْهِ صِيَامَهُ وَصَلَاتَهُ لاَ تَقْتُلِيهِ بِحَقِّ دِينِ مُحَمَّدِ[16]

فشاع قول الدّارِمي في النّاس، فلم يبقَ في المدينة امرأة إلا ابتاعت

15- ابن طيفور، أبو الفضل بن أبي طاهر. بلاغات النساء. قم: منشورات مكتبة بصيرتي، د.ت.، 178.

16- القُرطبي، يوسف بن عبد الله. بهجة المجالس وأنس المجالس وشحذ الذّهن والهاجس. تحقيق: محمد مرسي الخولي، بيروت: دار الكتب العلميّة، 2008، 1: 560.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

منه، حتّى نفذ ما كان مع الكوفي بفضل قول مِسكين، الّذي استطاع أن يقوم بعمل إشهاري للخمار الأسود، يوازي ما نراه اليوم من إعلانات تجاريّة تدفَع عليها مئات الآلاف من الدّولارات مقابل تسويق سلعة من السّلع، فاتّخذ مسكين من الشّعر أداة ناجعة للتّسويق، فجعل المرأة الجميلة تزدادا ملاحة بحجابها الأسود، وجعل التّقي الصّالح ينشغل بها عن عبادته.

إنّ هذه الشّواهد -وغيرها كثير-دالّة على أنّ العرب عرفوا الحجاب منذ العصر الجاهلي «ولعلّ هذا من بقايا الحنفيّة السّمحة التي تلقاها عرب الجاهليّة عن مِلّة إبراهيم،كما تلقّوا الخِتان والعقيقَة، وغيرهما[17] ، وهي دالة على فطرة المرأة النازعة إلى الحياء، والعفاف، والسّتر حتى جاء في أمثالهم «الموت الفادح خير من الزيّ الفاضح»[18] .

ولا يعني هذا نفي التبرّج بالكليّة عن تلك العصور، فإلى جانب الحجاب، والسّتر عرفوا ألوانا من التبرّج والسّفور، وقد جاء في محكم التنزيل: «ولا تبرجن تبرّج الجاهليّة الأولى» [19] قال القُرطبي (ت. ٦٧١ه/١٢٧٣م): «أي إذا خرجتنّ من بيوتكنّ: قال: كانت لهن مشية وتكسّر وتغنّج، يعني بذلك الجاهليّة الأولى فنهاهنّ الله عن ذلك.

إنّ هذا المسح السّريع، والإطلالة العاجلة على الحجاب في التراث العربي القديم ليؤكّد أنّ المرأة بفطرتها تأرز إلى الحياء، والحشمة، وتميل إلى ستر مفاتنها، وتغطية محاسنها، والشّعراء والأدباء يوظّفون الحجاب على حسب حالاتهم، فتارة يتخيّلون ما وراءه، وأخرى يبحثون عن سقوطه، وأحيانا يجدون في ميلانه سانحة لاختطاف نظرة غير مشروعة، وفي أحيان كثيره يمتدحون حشمة المرأة، واختمارها، وقلّة خروجها من خبائها، وسنجد في العصر الحديث معارك أدبية أوقدتها هذه القضية الاجتماعية المتجدّدة، ولعلي أحاول أن الملم الحديث في تلك القضيّة، وأستجلي أدواتها، راغبا في البحث عن قدرة

17- المقدّم، محمّد إسماعيل. عودة الحجاب. الرّياض: دار طيبة للنّشر والتّوزيع،2007 ، 3: 78

18- التّوحيدي، أبو حيّان علي بن محمد. الإمتاع والمؤانسة. تحقيق: أحمد أمين؛ وأحمد الزّين. بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت، 256.

19- سورة الأحزاب 33: آية 33.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الأدب بأجناسه المختلفة في التأثير، والتّغيير، والإقناع.

استعرض هذا المسح السّريع، والإطلالة العاجلة مفهوم السفور والحجاب في التراث الأدبي العربي القديم، واستعرض العلاقة بينهما من خلال شواهد شعريّة من العصر الجاهلي. وقد ظهر أنّ السّفور كان يعتبر ضّدّ الحجاب في الأدب العربي القديم، حيث كان الحجاب يُعتبر رمزًا للحياء والعفاف، في حين أنّ الكشف عن الوجه كان محطّ انتقاد. كما تبيّن أنّ استخدام الأدباء والشعراء لصور الحجاب والتستّر في أعمالهم الأدبيّة، وتوظيفهم لهذه الصور لإبراز صفات المرأة كالحياء والوقار، إضافة إلى تصويرهم للفتن التي قد تنشأ في حال كشف المرأة عن محاسنها. وتبيّن أنّ الأدباء كان لهم مواقف متباينة تجاه الحجاب والسّفور، حيث كانوا يتأملون وراء الحجاب ويبحثون عن معاني جديدة لما يختفي وراءه. فالحجاب كان جزءًا من ثقافة العرب منذ العصر الجاهلي، وكان مرتبطًا بالحياء والعفاف، وتمّ استخدامه في الأدب العربي لتعبير عن الفخر والفضيلة. كما يُظهر أنّ الأدباء والشعراء وظّفوا الحجاب والسّفور وفقًا لظروفهم الشخصيّة والأدبيّة، بين مدح الحجاب واستكشاف ما وراءه. وكانت قضيّة الحجاب ولا تزال قضية اجتماعيّة وثقافيّة تُثير العديد من النقاشات الفكريّة والأدبيّة، وما زال لها تأثير كبير في الأدب العربي الحديث.

مواقف الأدباء في العصر الحديث من قضيّة السُّفور

لا أريد -هنا-أن أخوض في المعارك الفكريّة، والعلميّة الّتي دارت رحاها بين المؤيّدين، والمعارضين لسفور المرأة في بلدان إسلاميّة عديدة، فقد قام عدد من العلماء، والمفكّرين، والمؤرّخين برصد هذه الظّاهرة، وتوثيقها، ومناقشة أدلتها، وإبراز الجهود العلميّة والثّقافيّة الّتي حشدها كلّ طرف لإثبات رأيه وتوضيح موقفه [20].

20- من ذلك على سبيل المثال لا الحصر «عودة الحجاب» لمحمّد المقدّم. و«قَوْلي في المرأة» لمصطفى صبري. و«المرأة في الشَّرق» لمرقص فهمي. و«المرأة: أزمة الهويّة وتحدّيات المستقبل» لإحسان الأمين. و«دفاعا عن المرأة» لجابر عصفور. و«التّحرير الإسلامي للمرأة» لمحمد عمارة. و« المرأة بين الموروث والتحديث» لزينب رضوان. و«العدوان على المرأة في المؤتمرات الدوليّة» لفؤاد العبد الكريم. وفي عام 1915 أنشئت مجلّة الدستور.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وحسبي في هذا البحث أن أتناول أبرز الأدباء الّذين خاضوا هذه المعركة، واستخدموا الأدب النّازع إلى العاطفة، النّابع من المشاعر لخوض هذه المعركة، وتأييد رأي على رأي، وهنا سيتكشف أثر الأدب، وهل كان أداة ناجعة في إحداث حراك اجتماعي حول هذه القضية؟ وهل حضر الأدب في هذه المعركة حضورا توصيفيا، أو حضورا يحشد الحجج، ويسدي البراهين لطرف دون اخر؟

إنّ المسح الأوّل لمواقف الأدباء من شعراء وناثرين إزاء هذه القضية يحيل إلى اتّجاهات ثلاثة:

- أدباء أيدوا السّفور بحماسة كبيرة، وإعجاب واضح، وصارعوا عددا من التّقاليد والعادات المجتمعيّة، وعدّوا الحجاب منها، وجعلوه قيدا لحريتها، ورمزا لتخلّفها، وعلامة لجمودها الفكري، والثّقافي، وأطلق بعض الدّارسين على هذه الفئة «جماعة السّفوريّين»[21].
- أدباء وقفوا ضدّ السّفور بحماسة كبيرة أيضا، ورأوا أنّ الحجاب قضيّة شرعية، لا تقبل المساومة، فهو علامة الحشمة، ودليل العفّة، وصمّام لحفظ المجتمعات من العلاقات المحرّمة، واتجهوا إلى تفنيد حجج الفئة الأولى والردّ عليها.
- أدباء تردّدوا في موقفهم بين التّأييد، والمعارضة، ولم ينزعوا إلى رأي واضح تجاه هذه القضيّة، وترك بعضهم الفصل في هذه القضيّة للمجتمع والزمن، وتوارى رأيه الحاسم في قضية السّفور، فكان موقفهم حائرا، متردّدا، لم ينتصر لفئة على أخرى.

ويقف على قائمة الاتّجاه الأوّل ممّن أيّد السّفور بحماسة كبيرة الشّاعر العراقي جميل صدقي الزّهاوي (ت. ١٩٣٦م) الّذي سجّل موقفا صريحا، ومندفعاً اتّجاه الدّعوة إلى سفور المرأة، وتمزيق حجابها، ورأى في حجاب المرأة رمزا لتخلّفها، ورجعيّتها، ووسمِه بِـ «الحارس الكذّاب» ونزع إلى الخروج من ربقة التّقليد، وقال في مقدّمة ديوانه مبرزا منهجه في شعره: «والشّاعر الحرّ شجاع لا يهاب في الصّدق لوم اللاّئمين... يريد كلّ يوم أن يمزّق عن العادات، ويمزق أطمارها

21- انظر مجلّة الغاوون، العدد 13، آذار 2009، وذلك في زاوية «دفتر» التي عالج فيها الباحث محمد الخبّاز دعوة السّفور لدى الشّاعر العراقي معروف الرُّصافي.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

البالية...»[22] وممّا قاله في دعوته لسفور المرأة [الخفيف][23]:

مَزِّقِي يَا ابْنَةَ العِرَاقِ الحِجَابَا ... وَاسْفِرِي فَالْحَيَاةُ تَبْغِي انْقِلاَبَا
مَزِّقِيهِ وَاحْرِقِيهِ بِلا رَيْثٍ فَقَدْ ... كَانَ حَارِسًا كَذَّابَا
مَزِّقِيهِ وَبَعْدَ ذَاكَ أَيْضًا مَزِّقِيهِ ... حَتَّى يَكُونَ هَبَابَا

ويمضي هذا الشّاعر في حماسته لدعوته، فيقول في قصيدة أخرى [الخفيف][24]:

قَالَ: هَلْ بِالسُّفُورِ نَفْعٌ يُرَجَّى؟ ... قُلْتُ:خَيْرٌ مِنَ الْحِجَابِ السُّفُورُ
إِنَّمَا فِي الْحِجَابِ شَلٌّ لِشَعْبٍ ... وَخَفَاءٌ وَفِي السُّفُورِ ظُهُورُ
كَيْفَ يَسْمُو إِلَى الحَضَارَةِ شَعْبٌ ... مِنْهُ نِصْفٌ عَنْ نِصْفِ مَسْتُورُ

وفي قصيدته الموسومة (أسفِري) يلهج بحماسة شديدة لدعوته، ويرى الحجاب من أدواء الأمّة الّتي أوردتها وحلّ التّخلّف، ويدعو المرأة العراقيّة لنبذ عاداتها، ومواكبة عصرها، يقول في زعمه السّالف [الخفيف][25]:

أَسْفِرِي فَالْحِجَابُ يَا ابْنَةَ فِهْرٍ ... هُوَ دَاءٌ فِي الاِجْتِمَاعِ وَخِيمُ
كُلُّ شَيْءٍ إِلَى التَّجَدُّدِ مَاضٍ ... فَلِمَاذَا يُقِرُّ هَذَا الْقَدِيمُ؟
أَسْفِرِي فَالسُّفُورُ لِلنَّاسِ صُبْحٌ ... زَاهِرٌ وَالْحِجَابُ لَيْلٌ بَهِيمُ
أَسْفِرِي فَالسُّفُورُ فِيهِ صَلاَحٌ ... لِلْفَرِيقَيْنِ ثُمَّ نَفْعٌ عَمِيمُ
لَمْ يَقُلْ فِي الْحِجَابِ فِي شَكْلِهِ ... هَذَا نَبِيٌّ وَلاَ ارْتَضَاهُ حَكِيمُ
هُوَ فِي الشَّرْعِ وَالطَّبِيعَةِ وَالأَدْ ... وَاقِ وَالْعَقْلِ وَالضَّمِيرِ ذَمِيمُ
زَعَمُوا أَنَّ فِي السُّفُورِ انْثِلاَمًا ... كَذَبُوا فَالسُّفُورُ طُهْرٌ سَلِيمُ
لاَ يَقِي عِفَّةَ الْفَتَاةِ حِجَابٌ ... بَلْ يَقِيهَا تَثْقِيفُهَا وَالْعُلُومُ

22- الزَّهاوي، جميل صدقي. ديوان جميل صدقي الزهاوي. عُني بنشره محمّد يوسف نجم، القاهرة: دار مصر للطباعة، 1955، مقدّمة ديوان جميل صدقي الزّهاوي، 4.

23- هذه القصيدة نُشرت في مجلّة البلاغ الأسبوعي يوم الجمعة 26 آب 1927 بتوقيع «الشّاعر الصّغير» وهي لجميل صدقي الزّهاوي.

24- الزّهاوي، ديوان جميل صِدقي الزّهاوي، 1: 720.

25- طبّانة، بدوي أحمد. سوانح وآراء في الأدب والأدباء. القاهرة: الشركة العالمية للنشر لونجمان، 1997، 244.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وتسيطر الفكرة على مذهب الزّهاوي في قصيدته المعنونة بـ: «ما في السّفور مَعَرّة» فتغور لغة الشّعر والإحساس، وتدنو القصيدة إلى المناقشة الفكريّة المرصوفة في قالب وزني، ومن ذلك قوله [مجزوء الكامل] [26]:

مَا فِي السُّفُورِ مَعَرَّةٌ تُخْشَى عَلَى امْرَأَةٍ عَفِيفَهْ
لَيْسَتْ مُشَايِعَةَ الطَّبِيعَةِ فِي عَفَافٍ بِالْمُخِيفَهْ
إِنَّ النَّظِيفَةَ فِي قَرَارَةِ نَفْسِهَا تَبْقَى نَظِيفَهْ

ويوجه خطابه إلى المستدلّين بشرعيّة الحجاب من القرآن الكريم، فيقول [مخلّع البسيط] [27]:

عَزَوا الحِجَابَ إِلَى كتابٍ فَلَيْتَهُمْ قَرَؤُوا الكِتَابَا
إِنَّ التَّعَصُّبَ مَانِعٌ أَنْ تُبْصِرَ العَيْنُ الصَّوَابَا

ويشايع الزّهاوي شاعر عراقي أخر هو معروف الرُّصافي (ت.١٩٤٥م) الّذي شخّص داء الأمّة فوجده في قيد العادات والتّقاليد، الّتي عاش أسيرا لها، ومذعنا لقداستها، ورغم أنّ من تلك العادات عادة الحجاب، فهي عادة لا تمتّ للدّين بصلة، واستعجب من التّشدّد في رمزيّته الدّينيّة. يقول الرُّصافي في زعمه السّابق [الطويل] [28]:

وَإِنِّي لَأَشْكُو عَادَةً فِي بِلاَدِنَا رَمَى الدَّهْرُ مِنْهَا هَضْبَةَ المَجْدِ بِالصَّدْعِ
وَذَلِكَ أَنَّا لاَ تَزَالُ نِسَاؤُنَا تَعِيشُ بِجَهْلٍ وَانْفِصَالٍ عَنْ الجَمْعِ
وَأَكْبَرُ مَا أَشْكُو مِنَ القَوْمِ أَنَّهُمْ يَعُدُّونَ تَشْدِيدَ الحِجَابِ مِنَ الشَّرْعِ

ويقول في موطن آخر[الطويل] [29]:

26- الزهاوي، ديوان جميل صدقي الزهاوي، 1955، 1: 714.

27- الزهاوي، ديوان جميل صدقي الزهاوي، 1: 602- 603.

28- الرصافي، معروف. ديوان الرّصافي. القاهرة: دار الفكر العربي، 2007، 344.

29- الرصافي، ديوان الرّصافي، 342.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

لَقَدْ غَمَطُوا حَقَّ النِّسَاءِ فَشَدَّدُوا عَلَيْهِنَّ فِي حَبْسٍ وَطُولِ ثَوَاءِ
وَقَدْ أَلْزَمُوهُنَّ الحِجَابَ وَأَنْكَرُوا عَلَيْهِنَّ إِلاَّ خُرْجَةً بِغِطَاءِ
أَضَاقُوا عَلَيْهِنَّ الفَضَاءَ كَأَنَّهُمْ يَغَارُونَ مِنْ نُورٍ بِهِ وَهَوَاءِ

ويرى أنّ حجاب المرأة هو تهذيبها، وتأديبها، وهو يجنح إلى الحجاب المعنوي، وينبذ الحجاب الحسيّ، فيقول [الكامل]:

شَرَفُ المَلِيحَةِ أَنْ تَكُونَ أَدِيبَةً وَحِجَابُهَا فِي النَّاسِ أَنْ تَتَهَذَّبَا
هَلْ يَعْلَمُ الشَّرْقِيُّ أَنَّ حَيَاتَهُ تَعْلُو إِذَا رَبَّتْ البَنَاتُ وَهَذَّبَا

والشّاعر العراقي المعروف محمّد مهدي الجواهري (ت.١٩٩٧م) يكتب قصيدة «رسالة مُمَلَّحة»[30] ويوجّهها إلى وزير الدّاخلية العراقي مهدي عمّاش الّذي سمع بمطاردته لابسات القصير، وضمّنها رأيه في لباس المرأة، وعِفّتها، الّتي لا تكمن في لبس الأقمشة، وإنّما هي كامنة في الضّمائر كما يزعم، فيقول [مجزوء الكامل]:

نُبِّئْتُ أَنَّكَ تُوَسِعُ الـ أَزْيَاءَ عَتًّا وَاعْتِسَافًا
تَقْفُو خُطَاهُ المُتَأَنِّقَاتِ كَسَالِكِ الأَثَرِ اقْتِيَافًا
وَتَقِيسُ بِالأَفْتَارِ أَرْ دِيَةً بِحُجَّةِ أَنْ تَنَافى
مَاذا تَنَافِي؟ بَلْ وَمَا ذَا ثُمَّ مِنْ خُلُقٍ يَنَافى
حُوشِيَتْ أَنْتَ أَرَقَّ حَا شِيَةً وَلُطْفًا وَانْعِطَافًا
وَأَشَدُّ لَصِقًا بِالْحَجَى وَأَلَدُّ بِالْعَدْلِ اتِّصَافًا
أَتَرَى العَفَافَ مِقَاسًا أَقْـ مَشَةً؟ ظُلِمْتَ إِذَا عَفَافًا
هُوَ فِي الضَّمَائِرِ لاَ تَخَافُ وَلاَ تَقُصُّ وَلاَ تُكَافى
مَن لَمْ يَخَفْ عُقْبَى الضَّمِيرِ فَمَن سَوَاهُ لَنْ يَخَافَا

ومن دُعاة السّفور أيضا الشّاعرة المعروفة بِلقب «باحثة البادية»[31]

30- الجواهري، محمّد مهدي. الجواهري في عيون من أشعاره. ط.4.، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنّشر، 1998، 527.

31- انظر معجم البابطين لشعراء العربيّة في القرنين التّاسع عشر والعشرين. النّسخة الإلكترونيّة على الرّابط التالي:
www.almoajam.org/poet_details.php?id=1727

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

(مَلَك حِفْني ناصف ت.١٩١٨م) الّتي كتبت قصدية عنونتها بِـ (رأي في الحجاب) وقالت في لغة لا تخلو من المباشرة والتّقريريّة [الكامل][32] :

يا لَيْتَ شِعْرِي وَالْمَشَارِبُ أَمْرُهَا مُتَعَاكِسٌ مِنْ أَيِّ وَرْدٍ نَسْتَقِي
فَدَعُوا النِّسَاءَ وَشَأْنَهُنَّ فَإِنَّمَا يَدْرِي الْخَلَاصُ مِنَ الشَّقَاوَةِ مَنْ شَقِي
وَأَمَامَكُمْ غَيْرَ القَنَاعِ مَأَزِقٌ أُولَى بِهَا التَّفْكِيرُ مِنْ ذَا الْمَأْزِقِ
لَيْسَ السُّفُورُ مَعَ العِفَافِ بِضَائِرٍ وَبِدُونِهِ فَرْطُ التَّحَجُّبِ لاَ يَقِي

ولإجمال مواقف الأدباء المؤيّدين للسّفور يمكن القول إنّه في الحقبة التي عاش فيها الشاعر العراقي جميل صدقي الزهاوي، كان الحجاب يشكّل جزءًا من التقاليد الراسخة في المجتمع العربي، وكان يُعتبر رمزًا للحياء والاحتشام. لكنّ الزهاوي اعتبر أنّ الحجاب كان عقبة أمام تقدّم المرأة، خاصّة في ظلّ انفتاح العالم العربي على ثقافات جديدة ومتقدّمة. في قصائده، مثل «مزّقي يا ابنةَ العراقِ الحِجابا» و«أسفري»، استخدم الزهاوي لغة حماسيّة للتأكيد على أنّ السفور – أي الكشف عن الوجه والشعر – هو الطريق إلى التقدّم والتحضّر. بل ذهب إلى أبعد من ذلك حين اعتبر أنّ الحجاب هو «حارس كذّاب»، أي أنّه كان يظنّ أنّ الحجاب يمنح المرأة شعورًا زائفًا بالعفّة، بينما الواقع يفرض عليها البقاء في دائرة التخلف.

وقد اتّخذ الشاعر معروف الرُّصافي نفس الموقف حيث انتقد الحجاب بقوّة، وكان يعتقد أنّ الحجاب ليس له أساس ديني، بل هو مجرّد عادة اجتماعيّة تقيّد حريّة المرأة وتعيق مشاركتها الفعّالة في المجتمع. كان يعيب الرُّصافي على المجتمع تقليد هذه العادات وتقديسها، رغم أنّها لا تعكس جوهر الدين.

أمّا الشاعر محمد مهدي الجواهري، فقد تبنّى نفس المفهوم بشكل أكثر عمقًا في قصيدته «رسالة مملّحة». انتقد الجواهري في هذه القصيدة تعسّف بعض المسؤولين في فرض ملابس معيّنة على النساء، مشيرًا إلى أنّ العفّة لا تكمن في الزيّ، بل في ضمير المرأة

32- الجواهري، الجواهري في عيون من أشعاره،527.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وأخلاقها. بل إنّ الجواهري وصف التمسّك بتفسير مظهر المرأة كمؤشر على عفّتها بأنّه ظلم.

وكانت الشاعرة ملك حفني ناصف (ت.١٩١٧م)، المعروفة باسم «باحثة البادية»، من بين أبرز المدافعين عن حريّة المرأة وحقوقها في هذا السياق. ففي قصيدتها «رأيٌ في الحجاب»، دعت ناصف النساء إلى التفكير في مصيرهن واختيار أسلوب حياتهنّ بحريّة، معتبرة أنّ السّفور ليس ضدّ العفاف. ورأت ناصف أنّ العفّة لا تتعلّق بالمظهر، بل بالتربية والتعليم، وأكّدت أنّ المرأة يجب أن تكون حرّة في اتّخاذ قراراتها بشأن ملابسها.

تقول في بعض أبيات قصيدة «رأيٌ في الحِجاب»: [الكامل]

أيسوؤكُم منّا قيامُ نذيرةٍ تحمي حماكُم من بلاءٍ مُحدِقِ
أيسرُّكم أن تستمرَّ بناتُكم رهنَ الإسارِ ورهنَ جهلٍ مُطْبقِ؟

في هذين البيتَين، تخاطب باحثة البادية المجتمع مستنكرة رفضه لتعليم المرأة وتحريرها من الجهل والتقاليد البالية، متسائلة إن كان يسرّهم بقاء النساء في الجهل والتخلّف بدلاً من أن ينهضن بالعلم والمعرفة، وتتحدّث عن وجود أصوات إصلاحيّة (نذيرة) تحاول حماية المجتمع من خطر الجهل والتخلّف، ولكن يبدو أنّ هذه الدعوات لم تلقَ قبولاً، ثمّ تتساءل بسخرية: هل يفرح الناس ببقاء بناتهم أسيرات الجهل والتقاليد القاسية بدلاً من تعليمهن وإعطائهن حقوقهن؟.

وقالت أيضا في كلمة مأثورة فيها:

إنّ الأمم الأوروبيّة قد تساوت في السّفور، ولم يكن تقدّمها في مستوى واحد، فمنها الُأمم القويّة، ومنها الُأمم الضعيفة، فلماذا لم يسوّ السفور بينها جميعا في مضمار التقدّم، إذا كان هو الأساس للرقي الحضاري كما يزعم هؤلاء»[33].

من خلال هذه القصائد والتوجّهات المختلفة، يمكن ملاحظة أنّ النقاش حول الحجاب كان موضوعًا للجدل بين المفكّرين والشعراء

33- شحاتة، أسماء. «ملك حفني ناصف: رائدة التحرّر والإصلاح في مصر»، مجلة ميم، عدد 30 أغسطس، 2017.(عبر الإنترنتّ في الموقع التالي:meemmagazine.net (تاريخ دخول الموقع 11 آذار 2025).

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

في هذه الحقبة. معظمهم كانوا يرون أنّ الحجاب لا يرتبط بالضرورة بالعفّة أو الفضيلة، بل كان في كثير من الأحيان رمزًا للتخلّف والرجعيّة، وكانوا ينادون بتحرير المرأة من هذه القيود الاجتماعيّة لتمكينها من المشاركة الفعّالة في المجتمع، خاصّة في المجالات العلميّة والثقافيّة. على الرغم من أنّ هذه الآراء كانت مثارًا للجدل في وقتها، فإنّها ساعدت في نشر فكر التغيير والتجديد الذي كان يهدف إلى تطوير المجتمع العربي، خصوصًا في ما يتعلّق بمكانة المرأة ودورها.

مواقف الأدباء المعارضين للسّفور

وفي مقابل هذه الفئة السّفوريّة فئة أخرى دعت المرأة إلى الحفاظ على حجابها، ونبذ تلك الدّعوات الزّائفة الّتي تبتغي استنساخ المرأة الغربيّة، والاحتذاء بها، ورأت في طيّات هذا الدّعوة خطرا مُحدقا بالمسلمين، فسفور المرأة هو مدعاة إلى الفساد الأخلاقي، والانحلال السّلوكي، وتعقيد الحياة المجتمعيّة...وفي هذا النّسيج المعقّد إشغال المسلمين عن همومهم الكبرى، وأهدافهم السّامية، وإفساد عباداتهم بملاحقة شهواتهم. ومن هؤلاء الأدباء: مصطفى صادق الرّافعي (ت.١٩٣٧م)، وأحمد محرّم (ت.١٩٤٥م)، ومحمود غنيم (ت. ١٩٧٢م)، ومحمّد عبد المطّلب (ت.١٩٨٠م)، وعلي الطّنطاوي (ت. ١٩٩٩م) وآخرون استنكروا الدّعوة إلى السّفور، وردّوا على دعاتها، واستقصوا في ذكر مخاطرها، وذكروا بمآلات السّفور في المجتمع الغربي، حتى أن أحمد محرم جعل الدعوة إلى سفور المرأة - التي كان من دعاتها قاسم أمين (ت. ١٩٠٨م)- أخطر من جيش يهاجم الأمّة، فقال [الطويل] [34]:

سلامٌ على الأخلاقِ في الشرقِ كُلِّهُ ... إذَا مَا استُبِيحَتْ فِي الخُدُورِ الكَرَائِمُ
أُقَاسِمُ لاَ تَقْذِفْ بِجَيْشِكَ تَبْتَغِي ... بِقَوْمِكَ وَالإِسْلاَمِ مَا اللّهُ عَلِمُ
فِيهِ كُلِّ سَطْرٍ مِنْهُ حَتْفٍ مُفَاجِئٍ ... وَفِي كُلِّ حَرْفٍ مِّنْهُ جَيْشٌ مُهَاجِمُ

34- محرّم، أحمد. ديوان محرّم. الكويت: مكتبة الفلاح للنشر والتوزيع، 1988، 2: 63- 65.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

والرّافعي (ت.١٩٣٧م) من أكثر المناضلين، وأشدّ الرّادعين لهذه الدّعوة، وقد دفعها بشعره، ونثره، فقال معلقا على مجلّة السّفور التّي أُنشئت عام ١٩١٥م: «...فأنا ناقم أشدّ النّقمة على مبدأ هذه الصّحيفة أي (السّفور) فأي سفور يريدون -أخزاهم الله-وقد حجبت نساء النّبي -صلى الله عليه وسلم-وهو أكمل من مشى على الأرض، ومن يمشي، وهنّ أمّهات المؤمنين... ولكن هؤلاء لا يفقهون دينهم، ولا أسرار دينهم، ولا ينظرون للمصلحة الصّحيحة... ودعاة السّفور لا تلائمني أخلاقهم، ولو كان فيهم مائة كاتب ومائة شاعر [35]. ويجأر بانتكاسة تلك الدّعوة، وإذعانها للهوى، ومعارضتها للفطرة فيقول شعرا [الطويل] [36]:

أَبَى الجَهْلُ إِلاَّ أَنْ يَكُونَ نِسَاؤُنَا رِجَالَ سِوَانَا وَالرِّجَالُ نِسَاءُ

ويقول في قصيدة أخرى له[الوافر] [37]:

دَلالُكِ فِي التَّبَرُّجِ مِنْ ضَلالِكْ وَمَا عَابَ الدَّلالُ سِوَى دَلالِكْ
كَمَلْتِ تَبَرُّجًا فَكَمَلْتِ حُسْنًا وَلَكِنْ جَاءَ نَقْصُكِ مِنْ كَمَالِكْ
لِمَن تَتَبَرَّجِينَ وَذِي سَبِيلٍ وَمَا هِيَ أُفُقُ شَمْسِكِ أَوْ هِلالِكِ
أَمَا تَخْشِينَ أَنَّكِ فِي طَرِيقٍ يَزُفُّ بِهَا الحَرَامُ عَلَى حَلالِكِ
وَأَنَّ ذِئَابَ هَذَا الحُسْنِ تَمْشِي مَسْعَرَةَ اللَّحَاظِ عَلَى غَزَالِكِ

ومن أصحاب هذا الاتّجاه الشّاعر المصري محمّد عبد المطّلب (ت.١٩٨٠م)، الّذي استنكر على النّساء التّبرج، وتقصير الثّياب وتغير السّلوك، فقد عبّر الشاعر عن أسفه وحزنه لما آلت إليه حال النساء في المجتمع، حيث أصبح العفاف والستر يُعتبر شيئًا مفقودًا، ويدعو

35- الرافعي، محمد صادق. رسائل الرافعي. جمع وترتيب محمود أبو ريّة، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، 1950، 57- 58.

36- الرافعي، مصطفى صادق. ديوان الرّافعي. شرح محمّد كامل الرافعي، القاهرة: المطبعة العموميّة، 1903، 46.

37- لم أعثر القصيدة في ديوان الشاعر. ووجدت إشارة إليها في رسائل الرّافعي، 57.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

إلى العودة إلى الفضائل والحشمة والحياء التي كانت سائدة في الماضي، وبرأيه أنّ الناس في «وادي النيل»، فقدوا البصيرة في فهم الأمور بشكل صحيح واهتموا بأشياء تضرّهم، بينما غاب عنهم فهم العواقب الوخيمة لتصرّفاتهم. يقول [مجزوء الكامل][38]:

مَا فِي بَنَاتِ النِّيلِ مِنْ أَرَبٍ لِذِي غَرَضٍ نَبِيلِ
أَصْبَحْنَ عَابَاتٍ فِي الزَّمَانِ وَسُوءَةً فِي شَرِّ جِيلِ
مَا لِابْنَةِ الْخَدَرِ الْمَصُونِ وَرَبَّةِ الْمَجْدِ الْأَثِيلِ
أُودِي شَفِيفُ نِقَابِهَا بِكَرَامَةِ الْأُمِّ الْبَتُولِ
وَإِنْجَابُ جَيْبِ قَمِيصِهَا عَنْ وَصْمَةِ الشَّيْخِ الْبَجِيلِ
وَعَلاَ رَنِينُ حُجُولِهَا آسِفًا عَلَى الذَّيلِ الطَّوِيلِ
فَإِذَا مَشَتْ هَتَكَ النِّقَابَ مَحَاسِنَ الْوَجْهِ الْجَمِيلِ

ثمّ يختم قصيدته بقوله:

عَمِيَتْ بِصَائِرُ أَهْلِ وَادِي النِّيلِ عَنْ وُضْحِ السَّبِيلِ
ذَهِلُوا عَنْ الْأَغْرَاضِ لَوْ يَدْرُونَ عَاقِبَةَ الذُّهُولِ!

وممّن استنكر دعوة السّفور علي الطّنطاوي (ت.١٩٩٩م) الّذي ردّد اعتراضه على هذه الدّعوة في مواضع متفرّقة من مؤلّفاته، فخصّ البنات برسالة صغيرة الحجم، عظيمة النّفع، عنونها بـ (يا بنتي) وضمّنها شجونا حول بنات المسلمين، وممّا قاله فيها حول موضوع السّفور والاختلاط: «وإنّ دعاة المساواة والاختلاط باسم المدنيّة قوم كذّابون من جهتَين: كذّابون لأنّهم ما أرادوا بذلك كلّه إلاّ إمتاع جوارحهم، وإرضاء ميولهم، وإعطاء نفوسهم حظّها من لذّة النّظر، وما يأملون من لذائذ أخر، ولكنّهم لم يجدوا الجرأة على التّصريح به فلبَّسوه بهذا الّذي يهرفون به، من هذه الألفاظ الطّنانة الّتي ليس وراءها شيء: التّقدميّة، والتّمدّن، والفنّ، والحياة الجامعيّة، والروح الرياضيّة، وهذا الكلام الفارغ -على دويّه- فكأنّه الطّبل.

وكذّابون لأنّه أوربا التّي يأتمون بها، ويهتدون بهديها، ولا يعرفون

38- عبد المطّلب، محمد. ديوان عبد المطّلب. القاهرة: مطبعة الاعتماد، 1900، 184.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الحقّ إلاّ بدمغتها عليه، فليس الحقّ عندهم الّذي يقابل الباطل، ولكن الحقّ ما جاء من هناك: من باريس، ولندن، وبرلين، ونيويورك، ولو كان الرّقص، والخلاعة، والاختلاط في الجامعة، والتّكشّف في الملعب، والعري على السّاحل، والباطل ما جاء من هنا: من الأزهر، والأمويّ، وهاتيك المدارس الشّرقيّة، والمساجد الإسلاميّة، ولو كان الشّرف والهدى، والعفاف، والطهارة طهارة القلب وطهارة الجسد»[39].

وقد كرّر الطّنطاوي دفاعه عن الحجاب، وردوده على الدّاعين إلى السّفور في ذكرياته، الّتي تناول فيها تحولاّت المجتمع السّوري، وما طاله من دعوات إلى سفور المرأة، وما تركه الاستعمار من نماذج خادعة، وبهارج تستميل ذوي القلوب المريضة، يقول في ذكرياته رادعا لمن سماهم (لصوص الأغْراض) من دُعاة السّفور لغرض الرّياضة، والرّشاقة، والحفاظ على صحّة النّساء: «...إنكم لا تريدون الصّحة، ولا الرّياضة، ولا المشاركة بالعيد. إنّما تريدون التلذّذ بمرأى أجساد بناتنا باسم العيد والرّياضة والصّحة. إنّكم لصوص الأعراض. ولكن ليس الحقّ عليكم الحقّ علينا نحن آباء الطّالبات والطّلاب، فنحن عميان لا نبصر، خُرس لا ننطق، حمير لا نغار، وإذا استمرت هذه الحال فليس أمامنا إلا اللّعنة الّتي نزلت على بني إسرائيل، على لسان داود وعيسى بن مريم. اللهمّ لقد بلّغت. اللّهم لقد أنكرت المنكر. اللّهم لا تنزل علينا لعنتك، ولا تحلل بنا غضبك»[40].

ويقول الطّنطاوي في عبارة مكتنزة تلخّص رؤيته للمرأة الشّرقيّة والمرأة الغربيّة: «استترت المرأة الشّرقيّة فعزّت، وتمنّعت فطلبت، وعرضت الغربية فهانت، لأنّ كلّ معروض مُهان»[41].

وفي السّودان يرفض الشّاعر السّوداني حسيب علي الحسيب (ت. ١٩٦٦م) هذه الدّعوة، وينبذها بعنف، ويُعبّر عن تزايد ظاهرة الكشف والعري التي لم تكن موجودة في العصور الماضية، وينتقد الانفتاح المفرط الذي يتجاهل الحياء والتقاليد، ويستعرض مشاعر الضعف

39- الطّنطاوي، علي. يا بُنَيّتي. جدّة: دار المنارة، 2009، 24- 25.

40- الطّنطاوي، علي. ذكريات. جدّة: دار المنارة، 1985، 253- 254.

41- الطّنطاوي، علي. مع النّاس.ط.3.، جدّة: دار المنارة، 1996، 126.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التي قد تشعر بها الفتاة في مواجهة هذه التحوّلات-كما يظهر في البيت الأخير-، وتتحدّث عن المسائل التي كانت تعتبر صراعات اجتماعيّة في الماضي، مثل مسألة السفور. فيقول في قصيدة رادّا على دعاة السّفور بلغة لا تخلو من المباشرة والتّقرير [الوافر][42]:

دَعُوا فِي خِدْرِهَا ذَاتَ الدَّلاَلِ ... فَقَدْ أَرْهَقْتُمُوهَا بِالْجِدَالِ
رَأَيْتُ شُعُورَهَا الْحَسَّاسَ مُضْنَى ... عَلَى هَذَا الْجُمُودِ عَنْ الْمَعَالِي
تَذُوبُ وَقَدْ تَنَاظَرْتُمْ حَيَاءً ... بِفُحْشِ اللَّفْظِ أَوْ هَجْرِ الْمَقَالِ
وَمَسْأَلَةُ السُّفُورِ غَدَتْ قَدِيمًا ... لَدَى الْكُتَّابِ مُشْكِلَةَ النِّضَالِ

ومن القصائد الّتي تحدّثت عن تغيّرات الموضة التي لا تستر الجسم وتكشفه بشكل متزايد، وتشكو من التحوّل الكبير في معايير الجمال والحشمة، ونافحت عن الحجاب، وتأسّفت على واقع المجتمع، وملابس النّساء ما سطره الشّاعر المصري محمود غنيم (ت.١٩٧٢م) في قصيدته «تَكَشَّفَ الغِيدُ» الّتي يقول في فيها [البسيط][43]:

تَكَشَّفَ الغِيدُ أَعْضَادًا وَسِيقَانًا ... لَمْ يَبْقَ مُسْتَتِرٌ فِي الغِيدِ مَا بَانَا
مَا لِلفَسَاتِينِ فَوْقَ الرُّكْبَةِ انْحَسَرَتْ ... فَمَا تَرَى تَحْتَهَا عَيْنَانِ فُسْتَانَا
يَا لَيْتَ شِعْرِي: مَا تُبْدِي الفَتَاةُ غَدًا ... بَعْدَ الَّذِي قَدْ بَدَا مِنْ جِسْمِهَا الآنَا؟
كَأَنَّنِي بِثِيَابِ الغِيدِ بَعْدَ غَدٍ ... إِنَّ حَدَثَ النَّاسِ عَنْهَا، قَدَّمُوا كَانَا

ثمّ يقول في حرقة، ونُصح للبنات [البسيط]:

قُلْ لِلْمَلِيحَةِ: لاَ تَكْشِفْ مَفَاتِنَهَا ... فَالذَّوْقُ يُنْكِرُ هَذَا الْكَشْفَ نُكْرَانَا
بِاللَّهِ، يَا فَتَيَاتِ الْعَصْرِ، قُلْنَا لَنَا: ... أَزَانَ أَبْدَانَكُنَّ الْعُرِيُّ أَمْ شَانَا؟
صُونِي الْجَمَالَ بِأَثْوَابٍ تُضَاعِفُهُ ... كَمْ مِنْ جَمَالٍ بِضَافِي ثَوْبِهِ ازْدَانَا
لَسْنَا نَعُودُ إِلَى الْمَاضِي بِعَادَتِنَا ... وَلاَ نُرِيدُ لَهَا سِجْنًا وَسَجَّانَا
لَكِنْ لِلذَّوْقِ حَدًّا لاَ نَجَاوِزُهُ ... وَلِلشَّرِيعَةِ وَالأَخْلاَقِ مِيزَانَا
لاَ يَعْشَقُ الْحُسْنَ إِلاَّ وَهُوَ مُمْتَنِعٌ ... مَا أَرْخَصَ الْحُسْنَ مَقْدَارًا إِذَا دَانَا!
بِالْبَدْرِ هَمَّنَا زَمَانًا وَهُوَ حُجَّتُهُ ... حَتَّى إِذَا مَا كَشَفْنَا سِرَّهُ هَانَا

42- المقدّم، محمّد إسماعيل. عودة الحجاب. الرّياض: دار طيبة للنّشر والتّوزيع، 2007، 1: 61.

43- غنيم، محمود. الأعمال الكاملة. القاهرة: دار الغد العربي، 1993، 1: 892- 893

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وَالْمَاءُ -وَهُوَ قَوَامُ الرُّوحِ- أَرْخَصُهُ أَنَا نَرَى كُلَّ نَهْرٍ مِّنْهُ مِلْأَنَا

ولإجمال آراء الأدباء والمفكّرين المعارضين لدعوات السفور يمكن القول إنّهم عارضوا دعوات السفور وتحرير المرأة في أوائل القرن العشرين، وتحديدا في السياق العربي الذي كان يشهد تأثيرات الاستعمار الغربي ومحاولات بعض الشخصيّات المحليّة تقليد الغرب في الكثير من جوانب الحياة، بما في ذلك في موضوعات المرأة، مثل الحجاب والسفور. هؤلاء المفكّرون كانوا يرفضون بشدّة الدعوات التي كانت تروّج لتقليد المرأة الغربيّة في مظهرها وحريّتها، معتبرين ذلك تهديدًا للهويّة الإسلاميّة والشرقيّة، وللقيم الاجتماعيّة والأخلاقيّة.

في مقدّمة هؤلاء المفكّرين كان مصطفى صادق الرافعي، الذي كان من أشدّ المعارضين للسفور، واعتبره خطوة نحو الفساد الأخلاقي والانحلال السلوكي في المجتمع. وكان الرافعي يهاجم هذه الدعوات بشدّة، في شعره ونثره، مُذكّرًا بأهميّة الالتزام بالقيم الإسلاميّة، مُستدلاّ على ذلك بحجاب أمّهات المؤمنين، ونساء النبي محمد صلى الله عليه وسلم، موضّحًا أنّ السفور لا يتوافق مع الدين الإسلامي ولا مع مصالح المجتمع.

ومن الشخصيّات التي انتقدت بشدّة هذه الدعوات كان أحمد محرّم، في قصيدته الشهيرة، التي يقارن فيها الدعوة للسفور بالهجوم العسكري على الأمّة الإسلاميّة، قائلاً إنّ الدعوة للسفور أكثر خطورة من أيّ جيش يُهاجم. محرّم كان يرى أنّ هؤلاء الدعاة لا يعرفون حقيقة ما ينادون به ولا يفقهون تأثيراته على المجتمع. في نقده، كان يشير إلى أنّ هذه الدعوات هي في الأساس محاولة للابتعاد عن القيم الإسلاميّة الأصيلة لصالح تقليد الغرب، الذي كان يراه في حالة انحلال أخلاقي.

كما أنّ محمود غنيم، في قصيدته «تَكَشَّفَ الغيد»، يعبّر عن أسفه لما آلَ إليه وضع المرأة في مجتمعه. ويُظهِر في قصيدته تنديدًا بالملابس المبتذلة والقصيرة التي ظهرت بين النساء، مؤكّدًا على أنّ التبرّج لا

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

يزيد المرأة إلا نقصانًا. وكان يدعو النساء إلى الحفاظ على جمالهن من خلال ستره والحفاظ على كرامتهنّ، مشدّدًا على أنّ الحسن لا يكون إلا عندما يكون ممتنعًا، وأنّ الكشف عن الجمال يعرّضه للتهالك.

أمّا محمّد عبد المطلب، فقد عبّر عن رفضه للتبرّج واختلاف سلوك النساء في المجتمع المصري، محذّرًا من تبعات ذلك على المجتمع. كان يرى أنّ هذا التغيير في سلوك النساء هو نتيجة لفقدانهم الوعي بقيمهم وتقاليدهم.

ومن بين هؤلاء المفكّرين المعرضين للسفور كان علي الطنطاوي، الذي كان له موقف صارم تجاه هذه الدعوات. في العديد من مؤلّفاته، كان يرد على دعاة السفور، ويعتبر أنّهم ليسوا صادقين في دعواتهم، بل يريدون فقط إرضاء شهواتهم الشخصيّة. وكان الطنطاوي يؤكّد على أنّ هذه الدعوات كانت في كثير من الأحيان نتيجة لتأثير الاستعمار الذي حاول فرض قيمهِ الغربيّة على المجتمعات الشرقيّة. وكان يرى أنّ هؤلاء الذين يدعون إلى السفور والاختلاط باسم «التقدميّة» و«التمدّن» لا يفقهون الحقيقة وراء هذه المفاهيم، بل كانوا يدافعون عن مفاهيم فارغة لا تحمل في طياتها إلا التدمير للأخلاق.

أمّا في السّودان، فقد كان الشاعر حسيب علي الحسيب أيضًا من بين من رفضوا دعوات السفور، معبّرا عن رفضه لهذا التحوّل في سلوك النساء، واصفًا إياه بالضلال. وكان يرى أنّ السفور قد أضرّ بالنساء، وأدّى إلى تدهور الأوضاع الاجتماعيّة.

إجمالاً، تتفّق هذه الأصوات الأدبيّة على أنّ السفور لا يشكّل تحرّرًا للمرأة، بل تهديدًا للهويّة الأخلاقيّة والإسلاميّة. ويظهر من خلال القصائد والكتابات المختلفة أنّهم كانوا يرون في الحجاب والعفّة رموزًا لكرامة المرأة وحمايتها من نظرات المجتمع المتسلّطة والشريرة.

الأدباء المتحفّظون من السّفور ولم يتّخذوا موقفًا محدّدا منه

وتبقى فئة من الشّعراء في موقف متردّد، تارة مع السّفور ومؤيّديه، وأخرى ضدّه، وتركوا الحكم على صحّة الرّأيَين إلى مستقبل الأيام،

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

فتقف بعد فحص نتاجهم الأدبي على موقف متردّد، أو متخوّف من الانحياز إلى فئة دون أخرى، وربما كان الظّرف التّاريخي أو السّياسي، أو الاجتماعي حاكما على انجذاب الأديب لرأي دون رأي، ومن هؤلاء الأدباء: أحمد شوقي (ت. ١٩٣٢م)، وحافظ إبراهيم (ت. ١٩٣٢م)، وهما شاعران كبيران في تاريخ الأدب العربي الحديث، وبدا موقفها متردّدا من هذه القضيّة، فشوقي يحثّ على التمسّك بالحجاب والقيم الدينيّة والتراثيّة، والاعتراف بمقام الأمهات والالتزام بنهج الكتاب والسّنة، والحفاظ على هويّة المرأة المسلمة من خلال قصيدته التي قالها في جمع من السّيدات المصريات [مجزوء الكامل] [44]:

قُمْ حَيِّ هَذِي النِّيرَاتِ حَيِّ الحَسَانَ الخَيْرَاتِ
وَاخْفِضْ جَبِينَكَ هَيْبَةً لِلْخَرَّدِ المُتَخَفِّرَاتِ
زَيْنُ الْمَقَاصِرِ وَالْحَجَا وَزَيْنُ مُحْرَابِ الصَّلاَةِ
هَذَا مَقَامُ الْأُمَّهَاتِ فَهَلْ قَدَرْتَ أُمَّهَاتِ
خُذْ بِالْكِتَابِ وَبِالْحَدِيثِ وَسِيرَةُ السَّلَفِ الثِّقَاتِ
وَارْجِعْ إِلَى سُنَنِ الْخَلِيقَةِ وَاتَّبِعْ نَظْمَ الْحَيَاةِ

وفي قصيدته «بين الحجاب والسّفور» تلمس تغيرا طفيفا في موقف شوقي تجاه الحجاب، وهو موقف مراوغ، متردّد، يشعرك بعدم وقوفه الرّاسخ على موقف محدّد من هذه القضيّة المجتمعيّة، فرمز للمرأة بالطّائر الحبيس، وتعاطف معها، ودعاها للتّحرّر المتعقّل، فكان موقفه وسطا بين الدّاعين للسّفور، وبين محاربيه، يقول في مطلع قصيدته [مجزوء الكامل] [45]:

صَدَّاحُ يَا مَلِكُ الكَنَا ر وَيَا أَمِيرَ الْبُلْبُلِ
قَدْ فُزْتُ مِنْكَ (بِمَعْبَدٍ) وَرُزِقْتُ قُرْبَ (الْمُوصِلِي)[46]

44- شوقي، أحمد. الشوقيّات. القاهرة: مؤسّسة هنداوي للتعليم والثقافة، 2012، 1: 102

45- شوقي، الشّوقيّات، 1: 176- 180.

46- هنا ينادي الشاعر شخصًا يُدعى «صدّاح»، ويمدحه بألقاب تدلّ على تفوقه في الغناء، حيث يصفه

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وفيها تتناول أفكارًا فلسفية عن الحياة والقيود التي تواجه الإنسان، ويحثّ على التحمّل والصبر في مواجهة الصعاب. كما يركّز على فكرة أنّ الحياة مليئة بالتجارب المتشابكة، وأنّ المعرفة الحقيقيّة قد تأتي من التجربة الشخصيّة، حتّى لو كانت مختصرة أو مجملة، ويأنف من العبوديّة والرّقّ حيث يقول [مجزوء الكامل]:

شَهدُ الحَيَاةِ مَشُوبَةٌ بِالرُّقِّ مِثْلَ الحَنْظَلِ
وَالْقَيْدُ لَوْ كَانَ الْجَمَاعُ مُنَظَّمًا لَمْ يَحْمِلِ
لاَ طَيْرَ لَوْلاَ أَنْ يَقُولُوا جُنَّ قُلْتُ: تَعَقَّلِ
اِسْمَعْ فَرُبَّ مُفَصَّلٍ لَكَ لَمْ يُفِدْكَ كَمُجْمَلِ
صَبْرًا لِمَا تَشْقَى بِهِ أَوْ مَا بَدَا لَكَ فَافْعَلِ
يَا طَيْرُ وَالأَمْثَالُ تُضْرَبُ لِلَّبِيبِ الأَمْثَلِ
دُنْيَاكَ مِنْ عَادَاتِهَا أَلاَّ تَكُونَ لأِعْزَلِ

ويأتي الموقف المؤيّد لقاسم أمين في قصيدته التي قالها في حفلة نسائيّة انعقدت في دار التّمثيل العربي برئاسة هدى شعراوي (ت.١٩٤٧م)، وجاءت في حقبة تالية لثورة ١٩١٩م حيث تحرّر شوقي من شاعريّة القَصْر الّتي قيّدت بعض أفكاره، وحجبت بعض مواقفه، ومنهم من ردّ هذا التّحوّل إلى عيشه في المنفى، ومراجعاته لعدد من أفكاره وقناعاته، وقراءاته العميقة في مراجع عربيّة وأجنبيّة، ويتجلّى موقفه في قصيدته الّتي يقول فيها مشاعر الأسير ومعاناته [مجزوء الكامل][47] :

قُلْ: لِلرِّجَالِ طَغَى الأَسِيرُ طَيْرُ الْحِجَالِ مَتَى يَطِيرُ؟
أَوْهَى جَنَاحَيْهِ الْحَدِيدُ وَحَزَّ سَاقَيْهِ الْحَرِيرُ
ذَهَبَ الْحِجَابُ بِصَبْرِهِ وَأَطَالَ حَيْرَتَه السُّفُورُ

بأنّه ملك «الكنا» (أي الغناء)، وأمير «البلبل»، وهو رمز للصوت الجميل، ويشير إلى أنّ هذا المغنّي أو المنشِد قد وصل إلى مرتبة عظيمة في الفنّ، حتى أنه يُقارن بالمغنيّين الشهيرَين من العصر الأموي والعبّاسي وهما: معبد وإسحاق الموصلي، الشاعر أحمد شوقي يمدح صوت المغنّي، ويقول إنّه قد وصل إلى درجة من العظمة تُماثل أشهر وأعظم المغنّين في التاريخ العربي القديم، مما يدلّ على إعجابه الشديد بمو هبته .

47- شوقي، الشّوقيّات. 2: 166.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وخاطب قاسم أمين بقوله [مجزوء الكامل]:

يَا قَاسِمُ انظُرْ كَيْفَ سَارَ الفِكْرُ وَانْتَقَلَ الشُّعُورُ
جَابَتْ قَضِيَّتُكَ الْبِلاَدَ كَأَنَّهَا مَثَلٌ يَسِيرُ
مَا النَّاسُ إِلاَّ أَوَّلٌ يَمْضِي فَيُخْلِفُهُ الأَخِيرُ

فشوقي في هذه الأبيات يعبّر عن معانٍ عميقة تتعلّق بالنضال الفكري والاجتماعي، خاصّة في سياق تطوّر الفكر والتغيير الاجتماعي، وقد تكون إشارة إلى قاسم أمين وحركته الإصلاحيّة في مصر في بداية القرن العشرين. ويبيّن أيضا معاناة فكريّة وتطوّرًا في الفكر والإصلاح الاجتماعي، والتحدّيات والآمال المتعلّقة بالتغيير والتحرّر الفكري والاجتماعي.

أمّا حافظ إبراهيم فقد اقترب من شوقي في موقفه الحائر تجاه قضيّة السّفور، وتنبّه لهذا التردّد النّاقد أحمد أمين (ت. ١٩٤٥م)، فقال في مقدّمة ديوان حافظ إبراهيم: «قد يُؤخذ عليه أنّه لم يكن يتعمّق في دراسة المسائل الاجتماعيّة، ولم يكن يُكوّن فيها رأيا بعد بحثها وتمحيصها، ودرس حججها، لقد هرب من إبداء رأيه ولم يتحيّز إلى أحد الفريقَين وترك المتنازعين يتنازعون في حريّة المرأة وتقييدها...»[48]. ويمثّل لهذا التردّد بموقفه من الحجاب حين رثى قاسم أمين بقوله [الكامل][49]:

إِنْ رَيْتَ رَأْيًا فِي الْحِجَابِ وَلَمْ تَعْصِمْ فَتِلْكَ مَرَاتِبُ الرُّسْلِ
الْحُكْمُ لِلأَيَّامِ مَرْجِعُهُ فِيمَا رَأَيْتَ فَنَمْ وَلاَ تَسَلِ
فَإِذَا أَصَبْتَ فَأَنْتَ خَيْرُ فَتًى وَضَعِ الدَّوَاءَ مَوَاضِعَ الْعِلَلِ
أُولاً فَحَسْبُكَ مَا شَرَّفْتَ بِهِ وَتَرَكْتَ فِي دُنْيَاكَ مِنْ عَمَلِ

تتحدّث الأبيات عن أهميّة الحذر في اتخاذ الآراء والتصرّفات، خصوصًا في الأمور التي تخصّ الدين والمبادئ. كما أنها تؤكّد على أنّ الزمن هو الذي يثبت صحّة الأعمال والأفكار، وأنّ الشخص الذي يُحسن في

48- إبراهيم، حافظ. الديوان. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، 1987، مقدّمة الديوان، 83.

49- شوقي، الشّوقيّات. 2: 166.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

عمله ويضع جهده في المكان المناسب، هو الشخص الذي يحقّ له الفخر.

يقول أحمد أمين بعد ذلك في حافظ إبراهيم: «فتراه مضّطربا لا يستطيع الجزم برأي، أو هو لا يريد»[50]. وفي قصيدة أخرى يحذر النّساء من السّفور، والتّشبه بالرّجال، ويوجه نداءه لمجتمعه بعدم التّضييق عليهن، والإسراف في سترهن في موقف متزن تجاه القضيّة. فيقول [الكامل][51] :

أَنَا لاَ أَقُولُ دَعُوا النِّسَاءَ سَوَافِرَا ... بَيْنَ الرِّجَالِ يَجُلْنَ فِي الَأَسْوَاقِ
يَدْرُجْنَ حَيْثُ أَرَدْنَ لاَ مِنْ وَازِعٍ ... يَحْذَرْنَ رَقَبَتَهُ وَلاَ مِنْ وَاقِي
يَفْعَلْنَ أَفْعَالَ الرِّجَالِ لواهيًا ... عَنْ وَاجِبَاتِ نَوَاعِسِ الَأَحْدَاقِ

ثمّ يقول:

كَلاَّ وَلاَ أَدْعُوكُمُ أَنْ تَسْرِفُوا ... فِي الْحَجْبِ وَالتَّضْيِيقِ وَالإِرْهَاقِ
لَيْسَتْ نِسَاؤُكُمُ حِلًى وَجَوَاهِرًا ... خَوْفَ الضَّيَاعِ تُصَانُ فِي الَأَحْقَاقِ
لَيْسَتْ نِسَاؤُكُمُ أَثَاثًا يُقْتَنَى ... فِي الدُّورِ بَيْنَ مَخَادِعٍ وَطِبَاقِ
فَتَوَسَّطُوا فِي الْحَالَتَيْنِ وَأَنْصِفُوا ... فَالشَّرُّ وَالتَّقْيِيدُ فِي الإِطْلاَقِ

ففي هذه الأبيات يوجّه الشاعر رسالة حول كيفيّة التعامل مع النساء، ويحذّر من الإفراط في تقييدهن أو إطلاقهنّ دون رقابة، والسماح لهن بالاختلاط المفرِط مع الرجال في الأماكن العامّة مثل الأسواق. ويدعو إلى الاعتدال في التعامل مع الحجاب والقيود الاجتماعيّة، ويؤكّد على أنّ النساء ليست مجرّد زينة أو أثاث يمكن التحكّم فيه، بل هنّ كائنات محترمات يجب عدم إساءة معاملتهن، وإعطاؤهن حقوقهن الكاملة، في إطار اجتماعي يضمن لهن الكرامة والمشاركة المتوازنة. وتشم رائحة التردّد في قصيدته المعنونة بِـ «تحيّة لجمعيّة المرأة الجديدة» فهو يردّ على القائلين بتعطيل المرأة المصريّة، ويمتدح صمود النّساء في المظاهرة المشهورة عام ١٩١٩م

50- شوقي، الشّوقيّات. 2: 166.

51- شوقي، الشّوقيّات. 1: 270.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

ضدّ الاستبداد الإنجليزي، الّتي طافت القاهرة هاتفةً بالحريّة بقيادة صفيّة زغلول[52] ، ومن ذلك قوله [الطّويل][53]:

يَقُولُونَ: نِصْفُ النَّاسِ فِي الشَّرْقِ عَاطِلٌ ... نِسَاءٌ قَضَيْنَ الْعُمْرَ فِي الْحُجُرَاتِ
وَهَذِهِ بَنَاتُ النِّيلِ يَعْمَلْنَ لِلْنَّهَى ... وَيَغْرِسْنَ غَرْسًا دَانِيَ الثَّمَرَاتِ
وَفِي السَّنَةِ السَّوْدَاءِ كُنْتُنَّ قُدْوَةً ... لَنَا حِينَ سَالَ الْمَوْتُ بِالْمُهَجَاتِ
وَقَفْتُنَّ فِي وَجْهِ الْخَمِيسِ مُدَجَّجًا ... وَكُنتُنَّ بِالإِيمَانِ مُعْتَصِمَاتِ

ففي هذه الأبيات يمدح شوقي دور النساء في مواجهة التحدّيات، حيث يبدأ بمقارنة بين وضع النساء في الشرق وبين إنجازات بنات النيل، ويذكر أنّ العديد من النساء في الشرق يُقَيّدْن في بيوتهن، بينما بنات النيل يعملن، ويسهمن في الخير والنّماء، ويكوّنّ قدوة في أصعب الظروف. ويستعرض كيف أنّ النساء في الأوقات العصيبة كنَّ صامدات في وجه الصعوبات، مثل وقوفهنَّ في مواجهة العدو في المعارك، مُظهِراتٍ الإيمان والتصميم في أوقات الحرب.

52- صفية مصطفى فهمي (1878- 1946م) ابنة مصطفى فهمي باشا، وهو من أوائل رؤساء وزراء مصر في أوائل القرن التاسع عشر. وزوجة سعد زغلول. لقّبت باسم «صفيّة زغلول» نسبة إلى اسم زوجها.كان لها دور بارز في الحياة السّياسيّة المصريّة ولدت لعائلة ارستقراطيّة فوالدها هو مصطفى فهمي باشا، التركي الأصل والذي يعدّ من أوائل رؤساء وزراء مصر منذ عُرِف نظام الوزراة بمصر في أوائل القرن التّاسع عشر، وقد حملت لواء الثورة عقب نفي زوجها الزّعيم سعد زغلول إلى جزيرة سيشل، وساهمت بشكل مباشر وفعّال في تحرير المرأة المصريّة. وهي حرم الزعيم المناضل سعد زغلول قائد ثوره 1919 بمصر. وحينما تزوّجته لم يكن سوى قاضيًا مصريًا ولكن عندما دخل المعترك السياسي ساعدته ووفقت بجانبه في الشدائد ولقّبت بصفيّة زغلول نسبة إلى زوجها سعد زغلول. لقّبت أيضًا بأمّ المصريين بسبب دفاعها المستميت عن القضية العربية بشكل عامّ والقضيّة المصريّة بشكل خاصّ وأُطلِق عليها هذا اللقب عندما ألقت السكرتيرة الخاصّة بها بيان على المتظاهرين حينها هتف أحد المتظاهرين بأمّ المصريين ومنذ ذلك الحين لقّبت بأمّ المصريّين. بعد رحيل «سعد زغلول» في 23 أغسطس عام 1927، عاشت زوجته «صفيّة» عشرين عامًا لم تتخلّ فيها عن نشاطها الوطني لدرجة أنّ رئيس الوزراء وقتها «إسماعيل صدقي» وجّه لها إنذارا بأن تتوقّف عن العمل السّياسي، إلّا أنّها لم تتوقّف عن العمل الوطني وكأنّ شيئا لم يكن. وقد كان خلعها للنقاب لحظة وصولها الإسكندريّة وظهورها من دونه في المحافل العامة والصور هو المرحلة الأولى لخلع النقاب عن فتيات مصر حيث طلب سعد من بعض النّساء اللاتي حضرن خطابه أن يقمن بخلع النقاب وهو الذي شجع نور الهدى سلطان الشّعراوي والملقّبة بهدى شعراوي الّتي كوّنت الاتحاد النسائي أن تخلع النقاب ومن ورائها العديد من النساء. توفيت صفيّة زغلول في 12 يناير 1946.لمزيد من التّفاصيل عنها انظر:

Steven A. Cook (1 September 2011). The Struggle for Egypt: From Nasser to Tahrir Square. Oxford University Press. p. 32; Nabila Ramdani (2013). «Women in the 1919 Egyptian Revolution: From Feminist Awakening to Nationalist Political Activism». Journal of International Women's Studies. 14 (2): 39-52.

53- شوقي، الشّوقيّات. 1: 122.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

وقد تهكّم حافظ إبراهيم بتعرّض الجيش البريطاني لمظاهرة النّساء المذكورة سلفا في قصيدة أخرى، ووصف سفور المرأة، وبروز شعرِها، فقال [مجزوء الكامل] [54]:

خَرَجَ الغَوَانِي يَتَجِبْنَ ... وَرَحْتُ أَرْقُبُ جَمْعَهُنَّ
فَإِذَا بِهِنَّ تَخِذْنَ مِنْ ... سُودِ الثِّيَابِ شِعَارَهُنَّ
فَطَلَعْنَ مِثْلَ كَوَاكِبٍ ... يَسْطَعْنَ فِي وَسَطِ الدِّجْنَةِ
وَأَخَذْنَ يَجْتَزْنَ الطَّرِيقَ ... وَدَارَ سَعِيدٍ قَصَدنَّهُ
يَمْشِينَ فِي كَنَفِ الوَقَارِ ... وَقَدْ أَبَنَّ شُعُورَهُنَّ
وَإِذَا بِجَيْشٍ مُقْبِلٍ ... وَالْخَيْلُ مُطْلَقَةُ الأَعِنَّةِ
وَإِذَا الجُنُودُ سُيُوفُهَا ... قَدْ صُوِّبَتْ لِنُحُورِهِنَّ

يشير حافظ في هذه الأبيات إلى خروج الغواني (النساء) اللاتي يلتزمن بالحجاب، حيث يذكر كيف أنّهن ارتدين الثياب السوداء كعلامة لسترهن، ثمّ يصفهنّ كالكواكب المتلألئة في ظلمة الليل، وهي صورة تعبيريّة عن جمالهن وسط هذا الظلام، وفي الأبيات التالية، يتحدّث الشاعر عن مشهدٍ آخر يتمثّل في مجموعة من النساء يمشين بأناقةٍ ووقار، وقد أبنَّ شعورهن، وهو ما قد يكون دلالة على النقاء والعفّة، لكن في وسط هذا الجمال والسكينة، يظهر جيشٌ مُقبلٌ بسرعة، والخيل تهجم على النساء، مُظهرةً تهديدًا للقوّة التي تقف في طريقهن، الجُنود الذين يحملون السيوف، والتي تشير إلى التهديد الوشيك، وهذا ما يضفي على المشهد طابعًا من الصراع بين القوّة والعفّة، بين الظلام والنور.

ولإجمال موقف الأدباء المتحفّظين من السّفور ولم يتّخذوا مواقف حاسمة من قضيّة السّفور والحجاب، يمكن القول إنّ هؤلاء الأدباء، مثل أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، لم يتبنّوا موقفًا ثابتًا، بل أظهروا تذبذبًا في مواقفهم بناءً على تطوّرات زمانهم وظروفهم الشخصيّة، بما في ذلك تأثير الحياة الاجتماعيّة والسياسيّة، فأحمد شوقي الذي يعتبر من أعظم شعراء العصر الحديث، بدأ حياته الأدبيّة في إطار

54- شوقي، الشّوقيّات. 2: 87.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

شعري تقليدي كان يحثّ فيه على التمسّك بالعادات والتقاليد، ومنها الحجاب، وفي العديد من قصائده المبكّرة، مثل تلك التي دعا فيها النساء إلى التمسّك بالحجاب والاحترام للهويّة الإسلامّية، كان يتبنّى موقفًا شديد التأكيد على ضرورة الحجاب.

لكنّ شوقي في قصيدته «بين الحجاب والسفور» يكشف عن موقفه المتردّد. في هذه القصيدة، ويرمز للمرأة بالطائر الحبيس، ممّا يعكس رؤيته المتعاطفة معها، إذ يرى في الحجاب قيدًا ربّما يحدّ من حريّتها. لكنّه في الوقت ذاته يطالب بالتحرّر «المتعقّل»، ممّا يشير إلى انفتاحه على فكرة السّفور بشكل معقول ومدروس، وليس بشكل مفرط. هذا الموقف يعكس تأثُّره بالفكر الإصلاحي الذي كان يروّج له قاسم أمين، الذي دعا إلى تعليم المرأة وتحريرها.

وفي مرحلة لاحقة من حياته، وبعد تجاربه في المنفى، وقراءاته المتعمقة في الأدب العربي والغربي، بدأ شوقي يبدّل بعض أفكاره. ففي قصيدته التي كتبها في حفلة نسائيّة في دار التمثيل العربي، التي كانت برئاسة هدى شعراوي، يظهر شوقي تأييدًا لبعض آرائهم حول السّفور، ويناقش تحوّل الفكر في المجتمع، حيث يقترب من رؤية قاسم أمين في تبنّي السّفور.

أمّا حافظ إبراهيم، فكان هو الآخر في موقف متردّد تجاه هذه القضيّة، الأمر الذي أكّده الناقد أحمد أمين في مقدّمته لديوان حافظ إبراهيم. فقد انتقد حافظ لعدم تعمّقه في دراسة المسائل الاجتماعيّة بشكل جادّ، وكان يتأرجح بين الآراء المختلفة. في بعض قصائده، يظهر تردّده في قضيّة الحجاب والسفور، حيث يقرّ أنّ الرأي النهائي في هذه القضايا هو للمستقبل، بل إنّه يترك الحُكم للأيّام. يُندّد حافظ إبراهيم في بعض الأحيان بالسُّفور، حيث يوجّه تحذيرًا للنساء من التشبه بالرجال، ويحثّ المجتمع على عدم تضييق الحريات، ولكن في ذات الوقت، هو لا يدعو إلى العودة إلى الإصرار على الحجاب بشكل قاطع، ففي قصيدته التي رثى فيها قاسم أمين، اعترف بتأثير أفكار الأخير، لكنّه في ذات الوقت أظهر تحفّظه تجاه التغييرات الكبيرة في المجتمع. كما في قصيدته «تحيّة لجمعيّة المرأة الجديدة»،

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التي امتدح فيها نضال النساء المصريّات في مظاهرات عام ١٩١٩م ضدّ الاستبداد البريطاني، حيث عبّر عن احترامه لمشاركة النساء في الحياة العامّة لكن دون التزام برأي ثابت بشأن السّفور أو الحجاب.

يظهر من خلال مواقف كلّ من شوقي وحافظ إبراهيم أنّ تردّدهما لم يكن وليد موقف شخصيّ فحسب، بل كان أيضًا انعكاسًا للتغييرات الاجتماعيّة والسياسيّة التي شهدها العالم العربي في تلك الحقبة. فقد كانت هذه الفترة تتّسم بتيّارات فكريّة إصلاحيّة، مثلما كان الحال مع قاسم أمين، الذي كان يدعو إلى تحرّر المرأة من خلال تعليمها ورفع قيود الحجاب عنها.

في قصائد شوقي وحافظ إبراهيم، نرى تشابكًا بين الرغبة في الحفاظ على التقاليد الثقافيّة والدينيّة وبين التأثيرات الحديثة التي كانت تطالب بتغييرات جذريّة في القيم الاجتماعيّة. كانا في موقع يعكس أزمة التحوّل بين ما كان عليه المجتمع العربي في العصور السابقة وبين التحدّيات الفكريّة الحديثة. من خلال هذه المواقف المتردّدة من شوقي وحافظ إبراهيم، نرى كيف أنّ القضايا الاجتماعيّة مثل الحجاب والسفور كانت تثير نقاشات مستمرّة بين الأدباء والمفكّرين في هذا العصر. بينما كان البعض، مثل قاسم أمين، يتبنّى رؤية منفتحة على التحوّلات، كان البعض الآخر يتعامل مع هذه القضايا بحذر شديد، حتى وإن لم يتبنَّ رأيًا قاطعًا، حيث كانت هذه القضيّة بمثابة محكّ لفهم العلاقة بين التقاليد والحداثة.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الخاتمة

كان السّفور أحد المواضيع المثيرة للجدل في العالم العربي الحديث، وأحد المحاور التي تعكس الصراع بين القديم والجديد، والتوتر بين التقاليد والحداثة. وانعكس ذلك لدى الأدباء العرب، وكان الجدل حول السّفور فرصة لإعادة التفكير في دور المرأة ومكانتها في المجتمع خاصّة مع ظهور الحركات الإصلاحيّة والثقافيّة في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين. انقسم المثقفون والأدباء العرب حول هذه القضيّة.

وتعدّ قضية السّفور واحدة من القضايا الاجتماعيّة التي أثارت الكثير من الجدل في العصر الحديث، وكان للأدباء دور كبير في تناول هذه القضيّة سواء من خلال الشعر أو النثر، وقدّموا مواقفهم المختلفة من الحجاب والسّفور استنادًا إلى رؤاهم الاجتماعيّة والثقافيّة. وقد انقسم المثقّفون والأدباء العرب حول هذه القضيّة بين مؤيّدين ومعارضين ومتردّدين.

❖ الأدباء المؤيّدون للسُّفور:

كما ذكرنا، من أبرز هؤلاء الأدباء الشاعر جميل صدقي الزهاوي الذي كان من أكثر الداعين للسفور بحماسة. هو ومن معه اعتبروا الحجاب يُمّثل قيدًا يعوق على حرية المرأة، وطالبوا بتخلّيه عن هذه العادة التي يعتقدون أنهّا تمنعها من التقدّم. وأكّد الزَّهاوي في العديد من قصائده أنّ الحجاب يعوق تقدّم المرأة ويحول بينها وبين المشاركة الفعالّة في المجتمع. وفي قصيدته الشهيرة «مَزّقي يا ابنة العراق الحِجابا» كان الزهاوي يدعو النساء إلى تمزيق الحجاب كرمز للتخلّف والرجعية، معتبرًا أنّ الحضارة والحداثة تتطلّب التخلّص من هذه العادات. ومن الأدباء الذين ساندوا هذا الموقف أيضًا الشاعر معروف الرُّصافي الذي أكّد أنّ الحجاب ليس له أساس ديني، بل هو مجرّد عادة اجتماعيّة. وبنفس النهج، يرى الرُّصافي أنّ تأكيد الحجاب من قِبل بعض الأفراد كعلامة على التمسّك بالدين، يعدّ بمثابة

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

استلاب فكري لأبناء المجتمع.

أمّا الشّاعرة باحثة البادية (مَلَك حَفْني ناصِف)، فقد دعت إلى أنّ المرأة لها الحقّ في اتخاذ قراراتها المتعلّقة بمظهرها كما تشاء، وأكّدت أنّ العفاف ليس مرتبطًا بالحجاب، بل بالأخلاق والمعرفة.

❖ الأدباء المعارضون للسّفور:

على النقيض من ذلك، كان هناك أيضًا فئة من الأدباء الذين دافعوا عن الحجاب بشدّة، واعتبروا السفور تهديدًا للأخلاق وللشرف العربي والإسلامي. ومن أبرز هؤلاء الأدباء كان الشاعر مصطفى صادق الرافعي الذي كان من أبرز المدافعين عن الحجاب، ويرى أنّ الحجاب ليس فقط أمرًا دينيًا، بل هو عنصر أساسي من عناصر الحماية الاجتماعيّة للمرأة. في ردّه على دعاة السّفور، كتب الرافعي: «السّفور يهدم المجتمع ويقلل من احترام المرأة لنفسها، بل يعرّضها لمخاطر اجتماعيّة وأخلاقيّة.» أيضًا أحمد محرّم كان له رأي مشابه حيث يرى أنّ السّفور يحمل خطرًا شديدًا على المجتمع العربي والإسلامي، وكان يربط بين دعوات السفور وبين الغزو الثقافي من الغرب، مشيرًا إلى أنّ هذه الدعوات تهدف إلى تدمير المجتمع من الداخل. الشاعر محمود غنيم من مصر كذلك، عبّر عن استيائه من تزايد ظاهرة السفور في المجتمع، وتحدّث عن كيف أنّ التبرّج وكشف الجسد يتناقض مع القيم الأخلاقيّة والتقاليد المجتمعيّة في الشعر العربي، محذّرًا من أنّ هذا الاتجاه قد يؤدّي إلى تراجع مكانة المرأة في المجتمع. الشاعر علي الطنطاوي كان من أبرز المتشدّدين ضدّ السّفور، وقد بيّن في كتاباته أنّ المرأة الشرقيّة يجب أن تحافظ على حيائها، وعفافها من خلال التزامها بالحجاب، وكان دائمًا يوجّه اللوم للمجتمع الذي يعادي القيم الدينيّة ويبحث عن تقليد الغرب.

❖ الأدباء المتردّدون:

بينما كانت هناك العديد من الدعوات الحازمة إمّا لتأييد أو معارضة السّفور، كان هناك أيضًا أدباء لم يتبنّوا رأيًا ثابتًا، بل ظلّوا في حالة من

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

التردّد. من هؤلاء الأدباء كان الشاعران أحمد شوقي وحافظ إبراهيم، اللذان لم يتّخذا موقفًا حادًّا بشكل مطلق من السّفور، بل كان لهما آراء معقّدة تعكس التوتّرات الاجتماعيّة والسياسيّة التي كانت سائدة في ذلك الوقت.

كان أحمد شوقي -مثلاً- يرى في البداية أنّ النساء يجب أن يحتفظنَ ببعض من التقوى والحياء لكن في ذات الوقت كانت له بعض القصائد التي تحثّ النساء على الخروج من الأسر التقليدي والمشاركة في الحياة العامّة. أمّا حافظ إبراهيم، فقد أبدى اهتمامًا بواقع المرأة في مجتمعه، وبيّنت بعض أعماله حيرة واضحة في اتخاذ موقف حاسم من قضية السّفور. كان يرى أنّ هناك حاجة إلى تغيير وضع المرأة لكن دون المساس بالعادات والتقاليد التي تحميها.

وخلاصة القول: تُظهر هذه المواقف المتنوّعة بين الأدباء كيف أنّ قضيّة السّفور كانت ذات أبعاد ثقافيّة واجتماعيّة ودينيّة معقّدة. حيث كان لكلّ أديب رؤيته الخاصّة بناءً على فهمه للهويّة الاجتماعيّة والحداثة والتقاليد، ممّا جعل الأدب العربي الحديث أحد أهمّ الميادين التي تعكس الصراع بين قيم الحداثة والتمسّك بالتقاليد.

الأدباء في هذا الصراع بين التأييد والمعارضة كان لهم دور كبير في نشر الوعي حول حقوق المرأة وأهميّة مكانتها في المجتمع، سواء عن طريق التأكيد على ضرورة التحلّي بالحياء والحجاب، أو الدعوة إلى التحرر والسفور.

وخاتمة القول إنّ للأدب قدرة في خوض غمار المعارك الفكريّة، واستخدامها أداة للإقناع، والحشد، والتّأييد، وله تأثير في خلخلة القِيم، وتبديل الموازين، أو استقرارها، والتّأكيد عليها.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

قائمة المراجع والمصادر

- إبراهيم، حافظ. الديوان. ضبطه وصححه وشرحه ورتّبه: أحمد أمين؛ أحمد الزين؛ وإبراهيم الأبياري، القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة للكتاب، ١٩٨٧.
- بِنْكرادBengrad، سعيد. وهج المعاني: سيميائيّات الأنساق الثّقافيّة. الدار البيضاء: المركز الثّقافي العربي، ٢٠١٣.
- التميمي، أبو عُبيدَة معمّر بن المثنّى. (معدّ). نقائض جرير والفرزدق. تحقيق: بيفان، ليدن: مطبعة بريل، ١٩٠٥-١٩١٢.
- الجبوري، يحيى. الملابس في الشّعر الجاهلي. بيروت: دار الغرب الإسلامي، ١٩٨٩.
- التَّوحيدي، أبو حيّان علي بن محمد. الإمتاع والمؤانسة. تحقيق: أحمد أمين؛ وأحمد الزّين. بيروت: دار مكتبة الحياة، د.ت.
- الجواهري، محمّد مهدي. الجواهري في عيون من أشعاره. ط.٤.، دمشق: دار طلاس للدراسات والترجمة والنّشر، ١٩٩٨.
- حسين، محمد. الاتّجاهات الوطنيّة في الأدب المعاصر.ط.٣.، الإسكندريّة: مطبعة الآداب، ١٩٦٨.
- حسين، محمّد. أزمة العصر. بيروت: مؤسّسة الرّسالة، ١٩٨٧.
- داكو، بيير. المرأة: بحث في سيكولوجيّة الأعماق. دمشق: منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٨٣.
- الدّاوود، عبد اللّه. هل يكذب التّاريخ. د.م.، د.ن. ٢٠٠٧.
- دريد بن الصِّمَّة. ديوان دُريد بن الصِّمّة. تحقيق: عمر عبد الرسول، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٥.
- الرافعي، محمّد صادق. رسائل الرافعي. جمع وترتيب محمود أبو ريّة، القاهرة: دار إحياء الكتب العربية، عيسى البابي الحلبي، ١٩٥٠.
- الرافعي، مصطفى صادق. ديوان الرّافعي. شرح محمّد كامل الرافعي، القاهرة: المطبعة العموميّة، ١٩٠٣.
- الرُّصافي، معروف. ديوان الرُّصافي. القاهرة: دار الفكر العربي، ٢٠٠٧.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

- شحاتة، أسماء. «ملك حفني ناصف: رائدة التحرّر والإصلاح في مصر»، مجلة ميم، عدد ٣٠ أغسطس، ٢٠١٧.(عبر الإنترنتّ في الموقع التالي:meemmagazine.net
- شوقي، أحمد. الشوقيّات. القاهرة: مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، ٢٠١٢.
- الضّبي، المُفَضَّل بن محمّد. المفَضّليّات. ط.٦.، تحقيق: أحمد محمد شاكر، وعبد السلا محمد هارون، القاهرة: دار المعارف، ١٩٨٣.
- الطّنطاوي، علي. يا بُنَيّتي. جدّة: دار المنارة، ٢٠٠٩.
- الطّنطاوي، علي. مع النّاس.ط.٣.، جدّة: دار المنارة، ١٩٩٦.
- الطّنطاوي، علي. ذكريات. جدّة: دار المنارة، ١٩٨٥.
- ابن طيفور، أبو الفضل بن أبي طاهر. بلاغات النساء. قم: منشورات مكتبة بصيرتي، د.ت.
- عبد المطّلب، محمد. ديوان عبد المطّلب. القاهرة: مطبعة الاعتماد، ١٩٠٠.
- عروة بن الورد. ديوان عُروة بن الورد شرح ابن السَّكيت. تحقيق: عبد المعين الملوحي، دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد القومي، ١٩٦٦.
- عصفور، جابر. دفاعا عن المرأة. القاهرة: الهيئة المصريّة العامّة، ٢٠٠٧.
- عمارة، محمّد. التّحرير الإسلامي للمرأة «الردّ على شبهات الغلاة». ط.٥.، القاهرة: دار الشّروق، ٢٠٠٢.
- غنيم، محمود. الأعمال الكاملة. القاهرة: دار الغد العربي، ١٩٩٣،
- الفراهيدي، الخليل بن أحمد. كتاب العين. تحقيق: مهدي المخزومي، وإبراهيم السامَرّائي، القاهرة: دار ومكتبة الهلال، د.ت.
- الفَيْروزبادي، مجد الدين محمّد بن يعقوب. القاموس المحيط. تحقيق: مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت: مؤسّسة الرسالة للطباعة والنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م.
- القُرطبي، يوسف بن عبد الله. بهجة المجالس وأُنس المجالس وشحذ الذّهن والهاجس. تحقيق: محمد مرسي الخولي، بيروت: دار الكتب العلميّة، ٢٠٠٨.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

- محـرّم، أحمد. ديوان محـرّم. الكويت: مكتبـة الفلاح للنشـر والتوزيع، ١٩٨٨.
- المقـدّم، محمّد إسـماعيل. عودة الحجـاب. الرّياض: دار طيبة للنّشـر والتّوزيع، ٢٠٠٧.
- النابغـة الذبيانـي، ديـوان النابغـة الذبيانـي. ط.٢.، تحقيـق: محمد أبو الفضـل إبراهيـم، القاهـرة: دار المعـارف، ١٩٨٥.
- النُمَيـري، جِـران العَوْد. ديـوان جِران العَـودْ النّميري رواية أبي سـعيد السّـكريّ. القاهرة: مطبعـة دار الكتب المصريّـة بالقاهرة، ١٩٣١.
- Steven A. Cook 2011. The Struggle for Egypt: From Nasser to Tahrir Square. Oxford University Press.
- Nabila, Ramdani (2013). «Women in the 1919 Egyptian Revolution: From Feminist Awakening to Nationalist Political Activism». Journal of International Women›s Studies. :(2) 14 52-39.

ium.usa.online@gmail.com www.ium.edu.so
+ 967 730053135 http://ium.usa.online

الجامعة الإسلامية بمنيسوتا

Islamic University of Minnesota

المركز الرئيسي IUM